



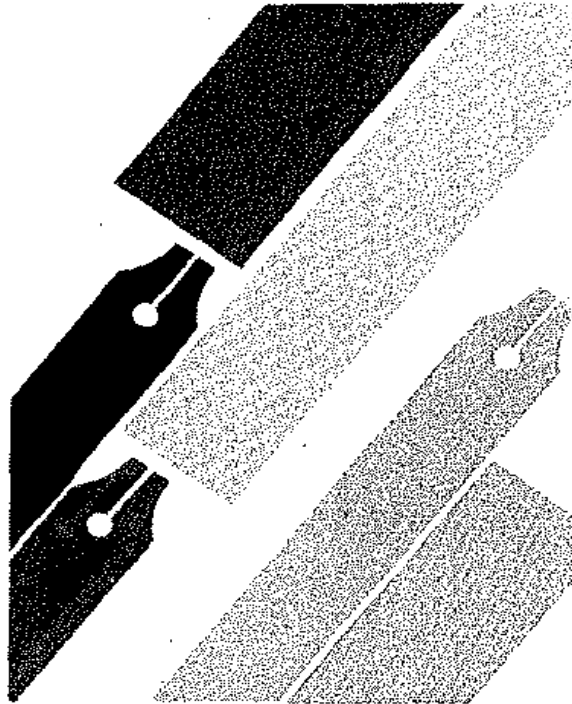
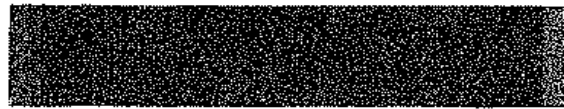
الهيئة القومية للبحث العلمي
مركز الأبحاث العربية

المركز القومي للدراسات والبحوث

الحياة الرومانيّة

كولريج والنقل الروماني

ج. روبرت بارت ، اليسوعي



ترجمة
د. عيسى علي العاكوب
مراجعة
د. خليفة عيسى العزابي



Bibliotheca Alexandrina



011616

انجیال لرمزی

معهد الانماء العربي

الحياة الرّمزي

كولريج والنقليد الروماني

ج. روبرت بارت ، اليسوعي

مراجعة
د. خليفة عيسى العزابي

ترجمة
د. عيسى علي العاكوب

الدراسات الادبية

حقوق الطبع محفوظة لمعهد الأبحاث العربي

1992

الهيئة القومية للبحوث العلمي

ص.ب. ٨٠٠٤ - طرابلس

المساهمة المبدئية الشعبية الاشتراكية

معهد الانماء العربي

ص.ب. ١٤/٥٢٠٠

بيروت

دار الكتب الوطنية / بنغازي

رقم الايداع 90 908

العلاف: طلال حاطوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْمُتَرْجِمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على بيته الهادي الأمين. اللهم بك أستعين وبك أستعين، وعليك أتوكل.

أما بعد، فقد كان لاهتمام كاتب هذه السطور بالدراسات الرومانسية عند بعض الدارسين الغربيين أكثر من باعث: لعلّ أظهرها أنّ التّاج الشعري الرومانسي وما قام حوله من دراسات قريب من ينابيع نفسه، وهو مما يستهويه ويجد فيه إجابات عن كثير مما يعرض له من تساؤلات. وهي إجابات تصيب وتخطئ، شأن الفكر الإنساني في تماسّه مع المطلق ومحاولته تعرّفه والأنس به. ويتنظم في سلك صلتني بالدراسات الرومانسية ترجمتي من قبل كتاب «الرومانسية الأوروبية - تعريف بالذات»، الذي جعلت عنوان معرّبه: «الرومانسية الأوروبية بأقلام أعلامها»، وهو ما أرجو أن يجد سبيله إلى أبدي القراء هذا العام بعون الله.

على أنّ الكتاب الذي يمثل بين يديك أخي الفارئ من لبّاب الكتب التي تنحو هذا المنحى؛ إذ يتناول قضية من قضايا الفنّ الشعري عند الرومانسيين. ويعالج فيه مؤلفه ج. روبروت بارت، الأستاذ في جامعة ميسوري في الولايات المتحدة، قضية الخيال الرمزي عند الشعراء الرومانسيين، وخاصة كولريدج ووردزورث. أما الرمز عند كولريدج، فيربطه بالأسرار المقدّسة في المسيحية، إذ

يقوم بفعل تشبيه بفعل السرّ المقدّس في نفوس المؤمنين . ويحدّد المؤلّف الفارق الدقيق بين الرمز (Symbol) وكلّ من المجاز (Metaphor) والقصة الرمزيّة (Allegory) . ويخلص إلى القول إنّ الرمز هو السبيل الوحيدة لعناق المطلق . ويميّز بين ضربين من الشعر يسمّي أحدهما شعر لقاء (Encounter) ، ويسمّي الثاني شعر إشارة (Reference) . ويمثّل للأول شعر لوردزورث وكولريديج . وشعر اللقاء هو شعر الرمز الذي يصدر عن رؤية شعريّة قائمة على إدراك العلاقات المتبادلة والعميقة والمتأصلة بين الفكر والشعور، وبين العقل والطبيعة، وبين الطبيعة والمتعالى . ويرى مؤلّف الكتاب أنّ وردزورث يمثّل في شعره أنموذجاً مثاليّاً لهذه الرؤية . وإنّ كان كولريديج صاحب الفضل الأوّل في هذا لكنّ جمهرة شعره شعر إشارة، شعر مجاز، إذ يشير إلى أشياء، وأشخاص ومشاعر، وحقائق روحيّة، لكنّه لا يلاقيها، أو يساعدنا في لقاءها، وهو ليس بشعر رمز . والفارق بين الرمز والمجاز: أنّنا في المجاز نكون مدركين أوّلاً الاختلافات بين الأشياء المشار إليها . أمّا في الرمز، فكون مدركين أوّلاً الوحدة؛ ولا نغدو، إلّا تدريجيّاً، مدركين تعقيده . وقد اعتقد كولريديج أنّه لا بدّ من إعادة إيجاد الحساسية الموحّدة التي افتقدت، هذه الحساسية التي أساسها تعانق الفكر والشعور واثلافيهما، ثم جاء ديكارت وأضرابه ليفصلوا بين عنصريها الأساسيّين هذين . ورأى كولريديج أنّ السبيل الوحيدة لإعادة إيجاد هذه الحساسية الموحّدة، إنّما هي الرؤية الدينيّة . وأنّه من دون هذه الرؤية الدينيّة لن يكون في وسع الإنسان إدراك جمال العالم وشفافيّة السرمدي عبر الزائل وفي الزائل .

وتعالج أخرى هذه المقالات قضية السياق الديني للرمز، وذلك بعد فقد الأشياء والكلمات بُعدها المقدّس، وحيث صارت الحداثة الأدبيّة تعبّر عن إحساس بالضياح والعزلة، نظراً إلى أنّ الإنسان، كما يقول المؤلّف، يُفصل عن الطبيعة، وعن الناس الآخرين، وعن الله . وإنّه من خلال الرمز وحده يستطيع الشاعر أن يعبر عن المتعالى والروحي في التجربة الإنسانيّة .

وقد يسّر المعن، جلّ وعلا، أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية قاصداً من ذلك إلى أن أقدم إلى القارىء ضرباً من الدراسات العميقة التي تتناول لوناً شعرياً متميزاً هو «الشعر الرومانسي» الإنكليزي. ويأسس القارىء هذه الأيام عودة واضحة المعالم إلى الاهتمام بالتراث الشعري الرومانسي وقراءته قراءة جديدة لدى عدد كبير من الدارسين الغربيين، على نحو ما نجد للبرفسور أبرامز، والبرفسور نورثروب فراي، والبرفسورة ليليان فرست، التي كنا ترجمنا كتابها «الرومانسية الأوروبية»، الخ . . .

ولعلّه من المهم أن أشير ههنا إلى أنّ من مقاصدي في الترجمة أن أسهم، أياً كانت درجة إسهامي، في تخفيف وطأة حاجز اللغة الذي يفصل بين القارىء العربي وما يكتب أساتذة الجامعات والنقاد الغربيون في شؤون الأدب والثقافة. ويتضمّن هذا الحرص على تخليص القارىء العربي من حرفة النصّ الأجنبي وطبيعة أدائه المباشرة لنظيرتها في لغتنا العربية. وذلك ما نلاحظ أنّ جمهرة ما يترجم لم تنج منه. فإن أضيف إلى ذلك جرأة على العربية وتعذّ على حدودها، جاءت الترجمة لتقول إنني خلّقت آخر، ولا وشيجة تربطني بالأصل. وابتغاء تجنب ذلك وجدتني، أثناء الترجمة، بين تيارين: الحرص على تحصيل المؤدّى الدقيق للمادة المراد ترجمتها، ثم إخراج هذا المؤدّى كاملاً وفق منطق العربية وبيانها، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولست أزيد القارىء كبير معرفة إن أنا قلت إنّ المترجم يظلّ قليل الرضى عن صنيعه، دائب الرغبة في تجديد صياغته، خاصة حين ينزع عنه ربة النصّ في صورته الأصلية بلغته الأولى، ويعود إلى مترجمه بعد حين.

وإذا ما كان عقل القارىء وتفكيره نصبّ بصيرة كلّ مؤلّف ومترجم، فإني أشكر ربّي - جلّ وعلا - الذي له الفضل كلّ، وله الأمر من قبل ومن بعد، وأصرع إليه أن يفيد بصنيعي القارىء الكريم، وأن يجعل هذا العمل، وسائر ما هيّأ لي لعمله، خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله ربّ العالمين.

عيسى علي العاكوب

طرابلس الغرب (الزنتان) شتاء 1990 م

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ

لا يظهر كتابُ إلى الوجود هكذا من فراغ - وأجدني مدفوعاً إلى أن أضيف - خاصة حين يكون الكتاب عن كولريديج. ولقد كثرت الدراسات المتصلة بكولريديج في السنوات الأخيرة، وتباينت كثيراً، إلى حدّ أن المرء قد يئس أحياناً من متابعتها. وقد يشعر المرء بأنه عاجزٌ حتى عن أن يضيف إلى مجموعها اقتراحاً متواضعاً كهذا.

وأحسب، رغم ذلك، أن هناك حاجةً إلى التنبيه الجذّي إلى مسألة الرمز عند كولريديج. وقد عرضتُ للمشكلة، أصلاً، في سياق دراستي الأولى: «كولريديج والعقيدة المسيحية»، وقد انتهيت إثر ذلك إلى الاستيقان من أنها تقف في صميم مسعاه الفكريّ الكلّي، سواء أكان ذلك في الشعر أم في النقد أم في الفلسفة. على أن هذا الكتاب لن يحلّ سائر المشكلات، بل ربما لا يفصح عنها جميعاً؛ لكنّه، في أسوأ التوقعات، سيقدم بداية.

وقد وسّعتُ، فضلاً عن ذلك، ميدان هذه الدراسة ليتجاوز كولريديج نفسه - إذ وردزورث أنموذجه الممتاز في ما يتّصل بشعر الخيال الرمزي - ابتغاء الوصول إلى بعض المبادئ العامة التي تحكم الشعر الرومانسيّ نفسه. وقد نحوتُ هذا النحو لما بدا لي من أن المظاهر الرمزية، ومن ثمّ (في رؤية كولريديج) المظاهر الدينيّة عند الشعراء الرومانسيين، كثيراً ما أهملت أو صُرّفت عن وجهتها

الصحيحة؛ ويجدونني أملًا، في عمل يعقب هذا، إلى استقصاء هذه المبادئ العامة على نحو أكثر تفصيلاً.

وإن إقرار الإنسان بما عليه من ديون وأفضال للآخرين، لواجب في أدائه كثير من الغبطة دائماً. وعليّ أولاً أن أشكر هيتي مكتبتين مساعدتهما النبيلة: مكتبة كولريدج في هارفارد، ومكتبه إلس في جامعة ميسوري - كولومبيا. فإسهامهما لا يقدر. وأنا ممتن أيضاً لأمين مجموعة بيرغ (Berg Collection)، في مكتبة نيويورك العامة لساحه لي باقتناس مقطعين من مذكرة لكولريدج لما تنشر بعد.

وأجدني مسروراً بأن أشكر للوقف الوطني لخدمة العلوم الإنسانية، والمجلس الأمريكي للجمعيات العلمية لمنح الصيف، منذ بضع سنين خلت، البدء بدراسة تأليف هذا الكتاب. وقد ساعدتني أيضاً منحة بحث من كلية هارفارد، ومنحة مجلس البحث في مدرسة الدراسات العليا، في جامعة ميسوري - كولومبيا.

وقد أذن لي محررو مجلة «دراسات في الرومانسية» بكتابة سالفة، بأن أفيد - فيما عدا الفصل الأول من هذا الكتاب - من مقالة ظهرت أول مرة في المجلة. فأشكر لهم إذنهم الكريم.

وعليّ أيضاً أن أضيف شكري مساعدة ضاربة الآلة الكاتبة النزرة الأخطاء والتي لا تشكو الإعياء، السيدة مارثا روبنسون، ثم مساعدة سوزن دارلي القيمة في عملية الفهرسة.

أما أفضال الزملاء فكثيرة. فالبرفسوران و.ج. بيت، وديفيد بركنز من جامعة هارفارد، والبرفسور فيليب س. رول، اليسوعي، من جامعة ديترويت، قرأوا جميعاً النسخة الأولى من المخطوط، وأسديوا أفضالاً كثيرة، لا تتمثل بالتشجيع فحسب، بل بالنقد الشامل والمقوم. وترجع أفضال هؤلاء الأصدقاء الثلاثة عليّ إلى أمد بعيد، وتمتدّ إلى أبعد من إعداد هذا الكتاب.

وأودّ أن أضيف كلمة شكر خاصة للبروفسور توماس مكفارلن من مركز الدراسات العليا في جامعة مدينة نيويورك، الذي تحدّثُ إليه كثيراً، خلال السنوات الماضية هذه، في شأن كولريديج والمعلومات المتصلة به.

وأخيراً فإنّ زملائيّ في جامعة ميسوري كانوا كرماء في تشجيعهم ودعمهم، وكذا في مشورتهم. وعلىّ أن أذكر خاصة البرفسور هورّد هنكل، زميلي في الدراسات الرومانسيّة، والبرفسورين هسكل هتانت وكاترين نيل سارك، العلماء بأدب القرن الثامن عشر، الذين قرأوا المخطوط كلّه أو بعضه، وقدموا اقتراحات قيّمة في سبيل تهذيبه. فلهم ولزملائي الآخرين في كولومبيا أشكر بعمق مناقشتهم ونصحهم، ولكن أشكر، قبل كل شيء، صداقتهم.

كولومبيا - ميسوري

كانون الثاني 1976

ج. ر. ب

فهرس مَوَضُوعَاتِ الْكِتَابِ

- 1 - الرمز بوصفه سرّاً مقدساً 15
- 2 - كولريديج وشعر الإشارة 31
- 3 - شعرُ اللقاء: وردزورث 53
- 4 - شعرُ اللقاء: كولريديج 89
- 5 - الرمز والرومانسية 113
- 6 - السياق الديني للرمز 135
- 7 - ثبت الأفعال المستشهد بها 149

الفصل الأول

الرَّمْزُ بَوْصْفِهِ سِرٌّ مُقَدَّسًا

حين نضع في الحسبان كيف كتب كولريديج، وهو صغير نسيباً، عن الرمز بوضوح، يكون رائعاً أن يكون مثل هذا أساسياً في تفكيره. والحق أنه كثيراً ما قال إن واحداً من أهدافه الرئيسة إنما كان تعليم المفكرين الإنكليز - سواء أكانوا متميزين في اليمين أم عقلايين في اليسار - أن ثمة برزخاً بين الحرفي والمجازي. وفي أخريات تفكيره خاصة، ولعل ذلك كان في السنوات من 1815 إلى 1834، كثيراً ما يبدو الرمز حاضراً. وسواء أكان يتحدث عن الفكرة، أم عن المنهج، أم الإيمان، أم الشعر، وحتى حين لا يستخدم كلمة رمز، يبدو المفهوم موجوداً هناك دائماً مترصداً عند «حافة الانتباه». ورغم ذلك، حاول نفر قليل من النقاد أن يمسكوا بزمامه بإحكام، على الأقل بقدر ما نجده خارج سياق الشعر نفسه. لكنه خارج سياق الشعر والنظرية الشعرية بالضبط، أحسب أن علينا أن نبحث عن معرفة المعنى العميق لفكرة كولريديج عن الرمز.

وتظل البؤرة الكلاسيكية، في «The Statesman's Manual»، خير مكان للبدء. وههنا، في دراسته الكتاب المقدس وطبيعة الحقيقة في الكتاب المقدس، يكثر كولريديج من التمييز بين القصة الرمزية «allegory» (أو الاستعارة metaphor) والرمز «Symbol» :

«إنه لمن نكد العصر السراهن أن لا يُقرَّ بوجود وسيط بين «الحرفي»

و «المجازي». فإما أن يتحتم وأد الإيمان في الحرف الميت، وإما أن يُغتصب اسمه ومقامه الرفيع من جانب نتاج زائف للفهم الآلي، الذي يمزج، في غمرة عمى الرضى عن النفس، الرموز والقصص الرمزية. وما القصة الرمزية الآن إلا ترجمة لأفكار مجردة إلى لغة تصويرية، ليست هي نفسها غير تجريد لموضوعات الخواص؛ والوجود الأول أكثر تفاهة حتى من ممثله الزائف، وكلاهما معاً وهيمان فضلاً عن أن أولهما لا شكل له. ومن وجهة أخرى،... يميز الرمز من خلال انكشاف الخاص في الفردي، أو العام في الخاص، أو السرمدي من خلال الزائل وفيه. وهو دائماً ينضح بالحقيقة التي يقدمها واضحة؛ وبينما يظهر الكل، يُبقي الرمز نفسه جزءاً حياً في الوحدة، التي هو ممثلها⁽¹⁾.

فما نقطة الخلاف الحاسمة، إذن، بين المجازي، أو الاستعاري الصرف، وبين الرمزي؟ الواضح أن الرمز، على غرار ما قد أشير إلى ذلك كثيراً، «ينضح دائماً بالحقيقة التي يقدمها واضحة». ونرى هذا أيضاً قبل ذلك بكثير، وذلك في الرسالة الطويلة، في العاشر من أيلول سنة 1802، إلى وليم سوثي.

والحق أنه لا تظهر كلمة «رمز»، لكن المفهوم موجود بوضوح في عقل كولريدج. «للطبيعة اهتمامها الخاص، وسيعرف طبيعته من يؤمن، ويشعر، ذلك أن لكل شيء حياة لذاته، وأنا جميعاً حياة واحدة. وينبغي أن يُجمع قلب الشاعر وعقله، ويُدمجاً، بحميمية، مع المظاهر الكبرى في الطبيعة - وليس فقط أن يمزجاً بها في محلول ومزيج مشعشع، في صورة تشبيهات شكلية»⁽²⁾.

(1) كتيب رجل الدولة The Statesman's Manual، في مواعظ لي، طبعة ر.ج. وايت، المجلد السادس من الأعمال المجموعة لصموئيل تايلور كولريدج، طبعة كاثلين كوبرن، سلسلة بُلَنجَن Bollengen Series، 75، (برنستون، 1972)، ص 30.

(2) رسائل صموئيل تايلور كولريدج المجموعة The Collected Letters of Samuel Taylor Coleridge، طبعة إيرل لسلي جريجز (أكسفورد، 1956-1959)، 2، 864. وانظر أيضاً الملحق C من «كتيب رجل الدولة». «لا أعني بالرمز Symbol مجازاً a metaphor، أو قصة رمزية (an allegory)، أو أي محسن بلاغي آخر، أو صورة من نتاج الوهم، بل جزءاً عملياً وأساسياً من ذلك، هو الجزء الذي يعبر عن الكل» (ص 79). وهناك أيضاً مناقشة ممنوعة للقصة الرمزية والرمز في المذكرة المكتوبة بخط يده، والتي لما تنشر بعد - وهي معروفة بمذكرة =

والـ «حياة الواحدة داخلنا وخارجنا» في «قيثارة عولس» غير بعيدة إلا في الزمان عن الانعكاس، بعد عشرين سنة، في The Statesman's Manual.

وكلّ هذا الذي ذكر كافي غالباً: فالرمز، عند كولريديج، ينضج دائماً بالحقيقة التي يمثلها. لكنّه تظلّ هناك مسألة أكبر من هذه، ولا يسأل عنها في الأغلب: ما الذي يأذن لهذا أن يكون على هذا النحو؟

ما هذا الذي تنطوي عليه رؤيته للحقيقة فيسمح له بأن يرى «حياة واحدة داخلنا وخارجنا»، ليؤكد ضمناً أنّ حقيقة ما، سواء أكانت مادية أم روحية، مرتبطة أساساً بكلّ الحقائق الأخرى - وأنا نعيش في عالم من الرموز، ومن ثمّ عالم من المعرفة الرمزية؟ تكمن الإجابة في ما يمكن أن ندعوه مبدأه في «وحدة جوهر Consubstantiality» الوجود كلّ، تلك الفكرة التي تشبه بوضوح الفكرة التقليدية في تشابه الوجود كلّ. وفي شأن مصطلح «من نفس الجوهر consubstantial»، علينا أن نعود إلى صحيفة واحدة فقط قبل المقبوس الذي كنّا قد رأيناه قبل من The Statesman's Manual. وإذ يتحدث كولريديج عن الكتاب المقدس، يقول عن ملكة الخيال إنّها: «تلك القوة المؤلفة الوسيطة، التي تدمج العقل في صور الإحساس، وتنظّم (إن جاز التعبير) فيض الأحاسيس من

= الـ «الورق المشبك clapsed vellum» التي احتفظ بها كولريديج منذ سنة 1814 إلى سنة 1825. هذه المذكرة، التي هي الآن ضمن مجموعة بيرغ Berg Collection في المكتبة العامة في نيويورك، هي فعلياً المذكرة 29 من السلسلة المرقمة للمذكرات كولريديج، ومعظمها في المتحف البريطاني. وقد اقتبست منها مقطعين قصيرين، بإذن كريم من قيم مجموعة بيرغ. «إنّ مجموعة مجازات metaphors مضمومة في كلّ واحد هي قصة رمزية an Allegory - وحيثما صارت المجازات متبنّة اصطلاحياً من جانب كلّ فئات المجتمع، فإنّ الأشياء التي ينطوي عليها التشبيه هي رموز أو مفعمة بطبيعة الرموز، ويُفترض أنّها معروفة من قبل، ومفهومة عند السامع، - هذه القصة الرمزية، التي لها هذه الأهمية - هي خرافة A Fable؛ وهذه وحدها جذيرة باسم الخرافة الإيسوبية - فالخيار، والثعلب، والاسد، والبُلوط، والذئب، والحمل، هذه جميعاً إما συμβολα وإما ωσονμολα...» المذكرة 29، f.59، «وسيتحدث غالباً، مع نمو المعرفة الإنسانية، أنّ ما كان قصة رمزية Allegory سيصير رمزاً Symbol. ومن ثمّ: فإنّ معاملة الحياة النباتية، من حيث الجنس، للحياة الحيوانية، بوصفها القوة نفسها في مرتبة أدنى، ستتقدّم بالقصة الرمزية الهومييرية أو المجاز المركّب [حيوات الناس مثل الأوراق...؟] JRB إلى الرمز». المذكرة 29، f.61.

خلال إبقاء طاقات العقل وتحريكها ذاتياً، فتولّد نظاماً من الرموز المتناغمة في ذاتها والمشاركة في الجوهر مع الحقائق التي هي موجّهات لها⁽³⁾. وليس نتائج الخيال الإنساني، وشعر الكتاب المقدس هي وحدها ما ينبغي أن يقرأ بوصفه رمزياً. فهذا يصدق على «كتاب آخر، هو، أيضاً، وحي الله - الكتاب العظيم لطبيعته الطائفة». ولأنه شعر الطبيعة الإنسانية كلّها، فلنقرأه أيضاً بإحساس رمزي، ولنجد فيه مطابقات ورموزاً للعالم الروحي⁽⁴⁾.

أي شيء ينطوي عليه هذا الإدراك الرمزي للحقيقة؟ أما من حيث الإمكان، فإنه غير محدّد في مجاله: خاصّ وعام، فكرة وصورة، جديد وقديم، ذاتي وموضوعي. والخيال، الذي هو عند كولريديج دائماً ملكة صنع الرمز، هو الملكة الموحّدة، وما يمكن أن يوحّده، واسع كسعة الحقيقة كلّها. والوصف الكلاسيكي لعمل هذه الملكة جدير بأن نوره تآمراً:

«الشاعر، الموصوف بالكمال المثالي، يزجّ النفس الإنسانية كلّها في العمل، بإخضاع كلّ قدرة من قدراتها للأخرى، وفقاً لأهميّتها وشرفها النسبيّين. وهو يبتّ طابع الوحدة وروحها، الذي يمزج، وكذا يدمج (إن جاز التعبير)، كلّ شيء في صاحبه، بفعل تلك القوّة التركيبية والسحرية، التي آثرناها وحدها باسم الخيال، وهذه القدرة التي تُزجّ في ميدان العمل أولاً بفعل الإرادة والإدراك، وتبقى تحت رقابتهما الفعّالة رغم أنها لطيفة وغير ملحوظة (Laxis effortur habenis)، تكشف عن نفسها في توازن أو اتسلاف للخصائص المتضادة أو المتنافرة: خاصيّات التماثل مع الاختلاف؛ العامّ مع المحدّد؛ الفكرة مع الصورة؛ الفردي مع الأعمودجي؛ إحساس الجذّة والعذوبة مع الأشياء القديمة والمألوفة؛ ما هو أكثر من حالة مألوفة من العاطفة مع ما هو أكثر من نظام مألوف؛ الحكم المتيقّظ دائماً والرابط الجأش الهاديء مع حماسة وشعور عميق أو شديد؛ ورغم مزجها بين الطبيعي والصناعي وجعلها متساوَيْن، تظلّ تُخضع

(3) كتيب رجل الدولة Statesman's Manual، ص 29.

(4) المرجع نفسه، الملحق C، ص 70.

الفن للطبيعة، والأسلوب للمادة، وإعجابنا بالشاعر لتعاطفنا مع الشعر»⁽⁵⁾.

زد على هذا الوصف للمكة صنع الرمز (ومن ثم ضمناً وصف الرمز الوصف الذي كنا قد شاهدناه قبل «يُميّز الرمز بانكشاف الخاص في الفردي أو العام في الخصوصي، أو الكوني في العام. وقبل كل شيء بانكشاف السرمدى من خلال الزائل وفيه». وواضح أنه يشمل، من حيث الإمكان، عمق الإنسان نفسه وارتفاع العالم كله وامتداده، داخل الزمان وخارجه. وتمتد المعرفة الرمزية إلى كل ما يمكن أن يعرفه الإنسان.

وحين نحسب حساب هذا، نستطيع أن نعمل بقوة على تجنب نوع التمييز الذي قام به، مثلاً، جيمس بيكر في معالجته الممتازة من نواح أخرى لكولريديج في موضوع الرمز. يُميّز بيكر بحدّة تامّة بين الرمز الرومانسي والرمز الحديث: «لقد كان الرمز الرومانسي شاقولياً، إن نحن تبيننا النظام القديم لسلسلة الوجود؛ فشيء «تحت» على الصعيد المادي، كان التشابه لشيء «فوق» على صعيد الأفكار أو الحقائق الروحية. أما في الرمزية الحديثة، فإن «فوق» و«تحت» قد أزيلتا، والرمزية الحديثة أفقية، وتختار الرمز من حيث كونه أداة لتوصيل تجربة المؤلف الثرية للحياة كما نعرفها»⁽⁶⁾. والدلالة الضمنية لتمييز بيكر، هي أن فكرة كولريديج عن الرمز لا تنطبق تماماً على الرمزيين «المحدثين» (أمثلته هي كافكاومان، وإليوت وبيتس)، بل تنسحب على عمل عصر سابق فحسب... لكنّه في مقابل فكرة كولريديج الثرية عن الرمز - وكذا الحال في مقابل ممارسة أفضل صنّاع الرمز في أيّ عصر، كسدانتي، وشكسبير، ووردزورث، ثم كافكاومان، وإليوت وبيتس - يبدو مثل هذا التمييز تضيقاً لا مسوّغ له لمجال الرمز. ويبدو بيكر راضياً عن تحليل للأدب الحديث «يسطح» فاعلية الرمز، ويرى الشعر الحديث مفقداً العنصر المتعالي في الرمز، الذي هو

(5) السيرة الأدبية Biographia Literaria، طبعة ج. شوكروس (أكسفورد، 1907)، 2، 12.

وانظر أيضاً مقالة كولريديج «في الشعر أو الفن» ملحقة بالسيرة الأدبية، 2، 254-259.

(6) جيمس فولانت بيكر: النهر المقدس The Sacred River: نظرية كولريديج في الخيال،

(باتون روج، لويزيانا، 1957)، ص 210-211.

مهم جداً عند كولريديج، تاركاً مكانه شكلاً رمزياً «دنيوياً» تماماً. لكنّ الرمز عند أفاضل الفنانين أنفسهم، بمن فيهم هؤلاء الذين يسوردهم، يمتدّ عمودياً وأفقياً معاً، مثلما يفعل عند كولريديج.

على أنّ تمييز بيكر بمائل لتمييز (إريك كهلر) بين الرمزية النازلة والصاعدة. والرمزية النازلة هي «كلّ رمزية يفكّ فيها التمثيل الرمزي نفسه، وينحدر إلينا، من حقيقة سابقة وعليها، حقيقة محدّدة، ومن ثمّ فائقة، لمعناها الرمزي. أعني أن الأعمال الأسطورية والدينيّة حقيقة لا يُراد منها أن تكون تمثيلاً رمزياً، بل يُراد منها أن تصف الحوادث الحقيقيّة. وأنّه نحن الذين، وهذا نتيجة منطقيّة، نشقّ المعنى الرمزي منها»⁽⁷⁾. ومن وجهة أخرى، فإنّ الرمزية الصاعدة هي «خلق جديد تماماً، ينبثق من الخيال الفنيّ. وليس ههنا مادّة خارجيّة موجودة من قبل تُقدّم إلى الفنان، فلا تعود النماذج الدينيّة توجّهه. وهو حرّ في أن يُوجد الصور التي تتضمّن شيئاً إنسانياً عادةً، على الرّغم من كونها فذّة، أشكالاً مفردة. ويبلغ الرمز في مثل هذه الأعمال مرحلة التمثيل الكامل»⁽⁸⁾. وأحسب أنّ كولريديج سيجد هذا التمييز غير ضروري أو غير مسوّغ كتمييز بيكر. وليس نتاج ملكة صنع الرمز «خلقاً جديداً كلّ الجذّة»، إذ هو دائماً ائتلاف بين القديم والجديد، الزائل والسرمدى، الحالّ في الوجود والمتعالى عن الوجود، الموضوعى والذاتى. والصانع أو المدرك هو دائماً جزء من الرمز تماماً على غرار ما يكون، في شكل إمكانيّ، كلّ بُعد للحقيقة الخارجيّة. هناك اختلافات في التحديد من عصر إلى عصر ومن شخص إلى آخر، لكنّ الرمز نفسه يظلّ دوماً تحديداً ساقاً واحدة دائماً، كما يقول (جون أنتركس)، «ترفس النجوم». ونظراً إلى أنّ الحقائق كلّها «من نفس الجوهر»، فإنّ كلّ حقيقة قابلة للتمثيل الرمزي.

ونشبه فكرة كولريديج عن «وحدة الجوهر» كثيراً جداً التصرّو الفلسفي

(7) طبيعة الرمز The Nature of Symbol، في «الرمزية في الدين والأدب»، طبعة رولوماي، (نيويورك، 1960)، ص 65.

(8) كهلر: ص 67.

التقليدي المتمثل في «اشتراك» الوجود كله، الذي هو أساس فكرة «سلسلة الوجود الكبرى» في عصر النهضة. إذ كل الكائنات، من حضرة الله [جَلَّ وَعَزَّ] إلى أصغر الأشكال المتناهية، تشترك في «الوجود». وعلى هذا الأساس، يكون الطريق مفتوحاً لإسناد صفات تشترك بين الأشياء كلها - بطريق التشابه، لكنه التشابه الحقيقي. فالجزء جميل، والحجر جميل، والحيوان جميل، والإنسان جميل، وكذا الله (تعالى) جميل. وليست هذه جميعاً جميلة بمعنى واحد، لكنها جميعاً يمكن، بمشروعية، أن تسمى جميلة، وتنطبق هذه التسمية بطريقة ما على الحقيقة. وقد يردّد المرء مع (روبرت برنز): «آه، إنَّ حُبِّي مثلُ وردة حمراء»، أو قد يقول، مع القديس بولس، إنَّ زواج الرجل والمرأة رامي لعهد بين المسيح وشعبه. ومهما يكن، فإنَّ الصفة المعزّوة ليست مجرد تخيل؛ فثمة حقيقة مقسمة، متائلة (مختلفة مع أنها بمعنى ما هي نفسها) لكنها حقيقية. وتعلّم شيء عن جمال الورد، يتعلّم الإنسان شيئاً جديداً عن جمال المعشوقة، وتعلّم شيء عن حبّ الرجل والمرأة يتعلّم الإنسان شيئاً جديداً من معنى عبارة الكتاب المقدس: «الله حبّ» God is Love. فالجمال واحد بمعنى ما؛ والحب واحد بمعنى ما، والوجود واحد بمعنى ما. «Turn but a ston and start a wing».

وليس هذا الإسناد ممكناً، بوضوح، لكل الخاصيّات؛ فمعظم الأمثلة التي قدّمت قبل، قائمة على ما يُدعى «الخاصيّات المتعالية» للوجود، التي يمكن نسبتها إلى كلّ الموجودات من دون استثناء. ويمكن نسبة خاصيّات أخرى إلى بعض الموجودات، وليس إلى غيرها. ويمكننا أن نقول، مثلاً، إنَّ النبات، والحيوان، والإنسان، وكذا الله (جَلَّ وَعَزَّ) تشترك جميعاً على نحو متشابه (كلّ منها بطريقته الخاصة) في خاصيّة الحياة، وليس في مقدورنا أن نقول هذا عن الحجر. لكنه ما إن نسلم بالتعالي الشامل للوجود نفسه وبالخاصيّات المتعالية للوجود (الذي يُنظر إليه عادةً بأنّه واحد، حقيقي، خير، جميل)، حتى يُفتح الطريق أمام اشتراك في الحقيقة على مستويات متنوّعة، وهو اشتراك أكثر تحديداً، ولكنه يظلّ أوسع نطاقاً. وأحسب أنّ شيئاً كهذا هو ما عناه كوليريدج بـ «وحدة جوهر» الرمز.

لكنّه تظّل هناك مشكلة الإدراك. فعلامٌ يبني كولريديج مثل هذه الفكرة؟ - كيف يدرك الإنسان «وحدة الجوهر» هذه، وحدة الأشياء كلّها التي تجعل الرمزية ممكنة؟ - يبدو كامناً هناك ضرب من فعل إيماني في هذه الوحدة، والأمر كذلك حقاً. إنّ صنع الرمز، وفي الواقع إدراك الرمز، هو عند كولريديج فعل ديني أساساً. وابتغاء فهم فكرته عن الرمز، علينا أخيراً أن نضع المناقشة في سياق ديني، إذ في هذا السياق وحده يمكننا أن نظفر بدلالته الصحيحة.

ولا ينبغي أن يكون هذا مثيراً للدهشة، إذا ما وضعنا في الحسبان «الكمال» الرائع لتفكير كولريديج. وعنده أن المعرفة كلّها واحدة أساساً، سواء أكانت علمية، أم شعرية، أم فلسفية، أم دينية، وأنّ رأس كلّ معرفة معرفة الله. وفي استطاعتنا أيضاً أن نجد تلميحاتاً في كلمة «من نفس الجوهر Consubstantial» نفسها حين تطبّق على الرمز. فأصولها واضحة تماماً؛ فهي الكلمة التي أقرّها مجلس نيقيا Council of Nicea سنة 325 م، للتعبير عن صلة الابن بالأب في الثالوث الأقدس. وقد أشار إليها كولريديج مرّة (في صورتها الإغريقية) بوصفها: «The dear lucky homocousios, that had set all Christerndom by the ears»⁽⁹⁾.

ولأنّه لجائز على نحو ما أنّ تمثيل كولريديج الأولي لهذه الكلمة ينبغي أن يكون تعبيراً عن أعمق شكل ممكن للوحدة وأسمى شكل لها (وحدة الله)، بالإضافة إلى أدلّ أشكال اختلاف الاختلافات وأكثرها حيوية (أشخاص الثالوث الأقدس). لأنّ هذا التوحد والاختلاف، في إطار حقيقة مشتركة على نحو جليّ (وتنضح بالحقيقة التي تمثلها واضحة)، هما من جوهر الرمز بالنسبة إلى كولريديج. فالابن «يرمز» حقيقةً إلى الأب؛ إذ يعرض صورته، في الوقت الذي يشترك فيه بالحقيقة الداخلية للأب، على أكمل وجه ممكن.

(9) المذكرة 35 (الملحق C 1827)، f.43. وقد استخدم الاقتباس من هذه المذكرة التي لمّا نُشر بإذن كريم من السيد هـ ب. كولريديج، ابن حفيد الشاعر.

لكنّ ثمة مصدراً أكثر وضوحاً لعلّه يكون قد لفت انتباهنا إلى السياق الديني في سبيل فهم للرمز عند كولريديج. إنّه تعريف الخيال، ملكة صنع الرمز وإدراك الرمز، في الفصل الثالث عشر من «السيرة الأدبية Biographia Literaria»:

«أفهم الخيال الأوّلي بوصفه القوّة الحيّة والأداة الأولى لكلّ إدراك بشري، وبوصفه تكراراً في العقل المقيّد لفعل الخلق السرمدى في الوجود المطلق. وأعتدّ الخيال الثانوي صدئاً للأول، متواجداً مع الإرادة الواعية، على الرّغم من أنّه يظلّ مطابقاً للأوّل في نوع فاعليّته، ومختلفاً عنه في الدرجة، وفي أسلوب عمله فحسب»⁽¹⁰⁾. وفعل إدراك الرموز (الخيال الأوّل) أو صناعة الرموز (الخيال الثانوي)، فعل دينيّ أساساً، اشتراك محدّد في الفعل الإبداعي المطلق للصانع الأسمى للرمز، والمدرّك الأسمى للرمز، مثلما أنّ الخلق نفسه هو (بصرف النظر عن الانبثاقات السرمدية للابن من الأب، والروح من الأب والابن) الرمز الأسمى. ولكنّ أيّ ضرب من الفعل الديني هو؟ - إنّه فعل إيمانيّ أساساً. ومثلما هي حال الفعل الإيمانيّ مع الرمز الأسمى، الخلق، تكون حاله مع كلّ الرموز الحقيقيّة الآخر (تلك التي «تنضح - حقاً - بالحقيقة التي تمثّلها واضحة»)، حيث يكون الفعل الإيمانيّ ضرورياً لإدراك الوحدة الحقيقيّة للوجود - وحدة الجوهر the consubstantiality - داخل الاختلافات. وهذا لأنّ صنع الرمز أو إدراكه، حسب كولريديج، يقتضي دائماً اتّحاد الذات والموضوع. وإذا ما حصل اتّحاد ذاتٍ مفكّرة ومريدة بأحدٍ ما أو شيء ما خارجها، فإنّه ينبغي أن

(10) السيرة الأدبية Biographia Literaria، 1، 202. تعلّق سارة كولريديج، ابنة الشاعر، على هذا المقطع قائلة: «هذه العبارة الأخيرة «وبوصفه تكراراً»، أجدها مشطوبة في نسخة ال-B.L.، وتتضمّن ملاحظات هامشية في المخطوط بقلم المؤلّف. . . ويخيّل إليّ أنّه من الأفضل أن تُبقي الجملة، بينما أذكر بحكم المؤلّف عليها، خاصّة كما اقتبست». السيرة الأدبية، طبعة هنري نلسون كولريديج (أكملتها سارة كولريديج)، في الأعمال الكاملة لسموئيل تايلور كولريديج، طبعة و.ج.ت. شد، (نيويورك، 1856)، 3، 363، الحاشية. وفي تعليقه على هذا المقطع في نصّ السيرة الأدبية لديه، يضيف شوكرس: «ربما شعر كولريديج بأنّ الأفكار التي توحى بها الجملة لم تكن منسجمة مع بقية المقطع» (1، 272). وحيث لم أجد عدم الانسجام هذا، تركت المقطع كما كتبه كولريديج في الأصل (المؤلّف).

يكون هناك تسليم من جانب النفس - يتضمن الثقة والحب ثم المعرفة - فعل إيماني.

والفعل الإيماني، عند كولريديج، هو تماماً ذلك التسليم من جانب النفس. وفي كتاباته المتنوعة المنشورة وغير المنشورة، عن قضية الإيمان، مشى على خيط دقيق بين تشديد الروم الكاثوليك التقليدي على الإيمان من حيث هو فعل معرفة، فعل عقلي أساساً؛ والتشديد البروتستانتي على الإيمان من حيث هو فعل إرادة⁽¹¹⁾. كان الإيمان، عنده، تسليماً من جانب النفس كلها، فعلاً للعقل والإرادة والعواطف. ليس الإيمان بعيداً عن الأمل والحب، والفضائل اللاهوتية الأخرى؛ فكل منها، حين تكون كاملة، تتضمن الأخرى. وفعل الإيمان هو فعل حب، إسلام الإنسان نفسه إلى آخر. وفعل الإيمان، كفعل الشاعر، «يزج النفس الإنسانية كلها في العمل».

وفي هذا المعنى، مثلها هي الحال في معانٍ أخرى، يمكن أن يُقال عن الرمز الصحيح عند كولريديج إن له طابع السر المقدس Sacramental. وبعض أوجه التشابه بين السر المقدس والرمز ستكون واضحة بقوة. فالسر المقدس إشارة محسوسة - كلمة غفران متفوه بها، إيماءة طقسية، شيء مادي (قطعة خبز، إشارة من خمر) - تشير إلى شيء ما وراءها. مثل هذا، عند كولريديج، رمز السر المقدس إشارة فعالة، وهو عملياً يستحضر ما يمثله - رحمة الله تعالى، التي هي جزء في حياة الله. وهو «ينضح بالحقيقة التي يمثّلها واضحة». وكذا يفعل الرمز. السر المقدس - كالتعميد، وتثبيت المعمودية، والزواج، والقربان المقدس - يستدعي اتحاد الذات والموضوع، المتلقي المؤمن والإشارة المادية التي تجعلها رحمة الله وسيطاً إلى المسيحي. هكذا يفعل الرمز. والسر المقدس إحدى الطرق التي يقدّق الله [جلّ وعزّ] فيها من قوّته على الناس، يأذن لهم بأن يفعلوا باسمه وبقوّته؛ إنّه اشتراك محدود في فعل الإيجاد المطلق للوجود. ومثل هذا، عند

(11) في شأن رؤية كولريديج للإيمان، انظر. ج. روبرت بارت، س.ج. : كولريديج والعقيدة المسيحية (كيمبردج، ماساشوستس، 1969)، الفصل الثاني، خاصّة الصفحات 31-33.

كولريديج، رمز. على أن ثمة مظهراً آخر للسّر المقدّس قد يؤكّد أكثر من هذه مشابهاً لفكرة كولريديج عن الرمز. وهو بُعدٌ للسّر المقدّس جاء إلى الواجهة حديثاً فقط في عمل اللاهوتيين الذين كتبوا في طبيعة الأسرار المقدّسة. وأحسب أنّه البُعد الذي يمكن أن يقال إنّهُ واحد من إضافات كولريديج الخاصّة إلى معرفتنا عن الرمز، إنّهُ فكرة السّر المقدّس - والرمز - بوصفها لقاء encounter.

ويؤكّد اللاهوتي الهولندي إدوارد شلبيكس أنّ هناك ميلاً من اللاهوت، خلال القرنين الماضيين، نحو «تناول موضوعي صرّف، وآليّ تقريباً» للأسرار المقدّسة؛ حيث دُرست «غالباً بلغة الأصناف المادّية»⁽¹²⁾. أما إجابة اللاهوت الأكثر حداثةً، فينبغي أن توجد دراسةً للأسرار المقدّسة وفق مفهوم «اللقاء الشخصي الإنساني» (ص 3). والأسرار المقدّسة هي أساساً «الشكل الإنساني الأمثل للقاء الله (تعالى)» (ص 6).

ويرجع بنا في هذه النقطة إلى افتراضنا المتقدّم أنّ صنع الرمز أو إدراكه، حسب كولريديج، ضربٌ من الفعل الإيماني. ويُراد منه إثارة استجابة الشخص كلّهُ، في الإيمان، والأمل، والحبّ. فهو تسليمٌ إنسانٍ ذاتهِ إلى ذات غيره. وما أقترحه هنا هو أنّ هذا التسليم يشبه كثيراً التسليم المستلزم في تلقّي السّر المقدّس، وخاصّة وفق ما يتصوّره شلبيكس: لقاء الله من خلال حقيقة ملموسة. لقد كانت حياة كولريديج كلّها بحثاً عن الوحدة سواء أكان ذلك في الشعر أم خارجه. وعنده أنّ صنع الرموز وإدراكها، وخاصّة في الشعر، ضربٌ من العمل الديني، الذي يُلقى بوساطته الله، حقيقة الحقائق، ومصدر كلّ وحدة. ولا يؤدّن لرموز الشعر والفنّ ورموز العالم الماديّ بأن تظّل غايةً في ذاتها. ذلك أنّ هناك «وحدة جوهر» للحقائق كلّها، وكلّ الأشياء - كلّ الأشياء التي تبرز بوصفها رموزاً لأشياء أخرى - تقول لنا شيئاً ما عن الله، عن الوجود. وبهذه الطريقة وحدها يستطيع كولريديج أن يقاوم الميل الدائم الذي يجده في الناس

(12) انظر كتاب «المسيح السّر المقدّس للقاء الله Christ the Sacrament of the encounter with God» (نيويورك، 1963)، ص 3.

نحو «تفتيت الحياة الغيبية الرائعة الواحدة التي تسري في الطبيعة وتبديدها في ما لا حصر له من أوثان الإحساس»⁽¹³⁾. وذلك لأنَّ «الظواهرات لا يمكن أن تؤخذ من الظواهرات»⁽¹⁴⁾. لكنَّه إذا كانت الرموز أساساً «تنضح بالحقيقة التي تمثلها واضحة» - الله (تعالى) نفسه - ، فإنَّ الاستجابة المقبولة الوحيدة لها هي تسليم الإنسان نفسه كاملة؛ زاجاً «النفْس الإنسانية كُلُّها في العمل». فهي استجابة للسرِّ المقدَّس في فعل إيماني، ومن هنا فهي لقاء الإنسان ربِّه.

وإنَّه لذو تأثير ههنا ما يسمَّى في الفلسفة المدرسية بـ «العلية المتبادلة». فإدراك الرمز أو إيجاد، في المعنى الذي قد وصفته به، يعتمد اعتماداً تاماً على قبول «وحدة جوهر» (في المعنى الذي أراده كولريديج) الأشياء كلها، وخاصة «وحدة الجوهر» الله (جلَّ وعزَّ) وخلقته. وحين يقبل الإنسان من خلال نوعٍ من الفعل الإيماني وحدة الجوهر هذه، إذ ذاك فحسب يستطيع أن يوجد، أو حتى أن يدرك، الإشارة التي تنضح حقاً بالحقيقة التي تمثلها. وتسليم النفس في الإيمان على هذا النحو (وهذا، عند كولريديج، إسلامٌ للنفس كُلِّها، في الحب وكذا في الإيمان) ضروريٌّ لإدراك الرمز من حيث هو رمزٌ، ولإيجاد الرمز من حيث هو رمز. والعكس صحيح، في الوقت نفسه: إذ إنَّ إدراك الرمز ضروري هو نفسه للإنسان في سبيل أن يصطنع مثلَ هذا التسليم للإيمان والحب؛ ذلك لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يُسلم نفسه إلَّا لما لديه عنه معرفة سابقة بطريقة ما.

ولقد هداني إلى هذه الفكرة نسبياً پول تِلش Paul Tilliche، الذي يتحدَّث في كتابه محرَّكات الإيمان Dynamics of Faith عن «تظُّهر الحقيقة» الذي يحدث في الرمز. «كُلَّ الفنون توجد رموزاً لمستوى من الحقيقة يُعجَز عن الوصول إليه

(13) «The Friend»، طبعة بابراي. روك، في الأعمال المجموعة لصموئيل تايلور كولريديج، طبعة كاتلين كوبرن، سلسلة بلنجن 75، (لندن، 1969)، 1، 518. والمقتبسات من هذا الكتاب مستمدة من القسم المعروف بـ «مقالة في المنهج».

(14) «The Friend»، 1، 500. أحرف مائلة Italics في النسخة الأصلية. وانظر أيضاً 1، 524-500.

بآية طريقة أخرى»⁽¹⁵⁾. وكثيراً ما نكون، كما يقول كولريديج عنها، «فكرة، في أسمى معنى لهذه الكلمة، عصية على التوصيل إلا بطريق الرمز...»⁽¹⁶⁾. يواصل تُلش الإصرار على أن الرمز «لا يُظهر أبعاداً وعناصر للحقيقة تظل من نواح أخرى عصية على التناول فحسب، بل يفتح أيضاً أبعاداً وعناصر من أنفسنا تماثل أبعاداً وعناصر للحقيقة. ولا تعطينا المسرحية الرائعة رؤية جديدة لمسرح الأحداث الإنسانية فحسب، بل تكشف أعماقاً خفية من وجودنا. ولذلك نكون قادرين على تلقي ما تكشفه لنا المسرحية في الحقيقة. توجد في داخلنا أبعاد يعزّ علينا أن ندركها إلا من خلال الرموز، كالألحان والإيقاعات في الموسيقى»⁽¹⁷⁾. وهكذا فما يفعله الرمز، عند تُلش وكولريديج، هو أن يتوسط بين الذات وحقيقة سوى النفس. وهو «يُظهر نفسه في توازن أو اتلاف للخصائص المتضادة أو المتنافرة»⁽¹⁸⁾، التي هي، على أية حال، غير متضادة أو متنافرة حقيقة. فهي مختلفة على الرغم من أنها هي نفسها، متائلة، وأساساً من جوهر واحد. ليس هناك «تألف» الاختلافات - العام والمحدد، الفكرة والصورة، الفرد والأنموذج فحسب (كما في السيرة Biographia)؛ إذ ثمة أيضاً «شفافية» أحدهما عن الآخر - شفافية الخاص في الفردي أو شفافية العام في الخصوصي أو شفافية الشامل في العام. وأكثر من ذلك كله، شفافية السرمدي عبر الزائل وفيه» (كما في The Statesman's Manual)⁽¹⁹⁾. وأنه بتوسط الرمز يحدث النمو في الذات، مدركة الرمز وموجدته. ونحن نُكشف للحقيقة والحقيقة تُكشف لنا. وهناك ضرب من الاعتماد المتبادل: فنحن نعتمد على الرمز، بينما يعتمد الرمز على إيجادنا أو إدراكنا إيّاه. ونحن نؤمن برمزية الرمز، ونجد أنفسنا قد أثريت به. أثريت به أنفسنا إلى درجة أننا قادرون على تسليم أنفسنا تماماً إلى

(15) «عمرات الإيمان Dynamics of Faith»، في «مظورات العالم»، مجلد 10، (نيويورك، 1956)، ص 42

(16) «السيرة الأدبية Biographia Literaria»، 1، 100.

(17) «عمرات الإيمان Dynamics of Faith»، ص 42-43.

(18) «السيرة الأدبية Biographia Literaria»، 2، 12.

(19) كتيب رجل الدولة Statesman's Manual، ص 30.

الحقيقة الرمزية، وقادرون على إدراكها تماماً. ومن خلال هذا الإدراك الجديد، نثرى ثانية.

وفي كتاب جون كولسون John Coulson الجديد، المسمى «نيومان والتقليد العام»، يوجز كولسون الرأي نفسه بلغة فكرة كولريديج عن الكنيسة بوصفها رمزاً، مشدداً على كل من مظهر النمو ومظهر الاعتماد المتبادل للرمز والمدرّك. وهو جدير بأن نورده كاملاً:

«إن تصوّر الكنيسة الذي يُستمد من كولريديج - أعني تصوّر الرمز أو الفكرة - «ذو طبيعة عضوية organismus» ويقتضي منا استجابة عضوية وموحدة ماثلة: مهمتها جمع مظاهر الدين كلها، ومظاهر المؤمن كلها في مركز موحد. وفي مقدورنا أن نفهم هذا التصوّر بدقة إن نحن نظرنا إلى كيفية حديث كولريديج عن السرّ المقدس في الزواج: «هو إشارة خارجية مشتركة في جوهر ذلك الذي تشير إليه»: إنه جزء من الكلّ بمعنى كونه تكثيفاً لما نجربّه الآن، وليس شيئاً مختلفاً أو منفصلاً». ومن ثمّ، فإنّ الزوج والزوجة يعانيان تبعات عقد حبّ زواجهم... طوال السنة، ويظلّان يحفّيان به بفعل من الحب نفسه أكثر أناة وتأملاً في الذكرى السنوية لزوجهما»⁽²⁰⁾.

إن إدراكنا للرمز ليس كاملاً؛ لأننا نحن أنفسنا غيرُ كُمل:

«وعند كولريديج، أنّ السرّ المقدس والرمز هما الشكلاّن الخاصان لتحقيق الموافقة الدينية. وحين نتزوج، أو نعمّد، أو نذهب إلى العشاء الرباني، نوّدي عملاً لا بدّ منه لفهم أبعد وأكمل لموافقتنا. قد نقول إنّ السرّ المقدس أو الرمز كان أنموذجاً لنطق إجرائي، يكشف أثناء الأداء فهماً أكثر اكتمالاً للأنموذج - والأنموذج (أو الرمز) وفهمنا إياه يكونان، تبعاً لذلك، «الشيء نفسه ولكن في

(20) «نيومان والتقليد المشترك Newman and the Common Tradition»: دراسة في لغة الكنيسة والمجتمع (لندن، 1970)، ص 35. والجميل المُستشهد بها مستمدة من Aids to Reflection، الأعمال الكاملة، طبعة شيد، 1، 138، الحاشية؛ ومن Literary Remains، في الأعمال الكاملة، طبعة شيد، 5، 224.

مراحل مختلفة من نموّه». علينا أن نعتقد لكي نفعل، ونفعل لكي نفهم اعتقادنا».

ولأنّ للرمز عند كولريديج، يتابع كولسون القول، وظيفة ثنائية: «فإنّه لا يشير إلى المتعالي فحسب، بل إنّهُ الأداة التي يلاحقنا بها المتعالي أو المطلق، أو يحمّينا. وبمعنى ما، نحن الذين نكشف الرموز؛ لكنّها بمعنى آخر هي التي نكشفنا، حين نعبر، ونجسّد، أو نجري الأعمال التي تفرضها» (ص 36).

وهذا كلّ وثيق الصلة برؤية كولسون أنّ كولريديج ينتمي إلى تقليد مضادّ للتقليد «البنتامي Benthamite» الذي يعود إلى ديكارت. والثاني قليل الثقة جداً باللغة: تستطيع اللغة أن تخدع بسهولة، وعلى الإنسان أن يناضل في سبيل الأفكار الواضحة والتميّزة، وألاّ يثق إلاّ بها. أما التقليد الآخر الأقدم عهداً - وإليه ينتمي كولريديج - فلديه ثقة عميقة وراسخة باللغة بوصفها تجسّداً لتجارب الجماعة. «الاستجابة الرئيسة للغة، بالنسبة إليه، ليست صحيحة لزاماً، بل إنّها معتمدة على الثقة. وفي الدين، مثلما هي الحال في الشعر، يُطلب منا أن نقوم بعمل مركّب من الاستدلال والموافقة، ونبدأ بالثقة بالتعبير التي تكون عادةً في شكل تمثيلي، أو مجازي أو رمزي، وبأداء المطالب التي تدّعيها هذه التعبيرات: فهم اللغة الدينية وظيفة لفهم اللغة الشعرية» (ص 4).

وعند كولريديج أن الشعر - بوصفه تفوّهاً رمزياً - ليس خداعاً؛ بل هو، على العكس، أكمل استخدام، وأدق استخدام ممكن للغة. وليس هذا لأنّه واضح ومتميّز - لأنّه يحدّد (يرسم الحدود) للأشياء - بل لأنّه، بدقة، لا يفعل شيئاً من هذا. والعمل الفني «غني بمقدار تنوّع الأجزاء التي يمسك بها في وحدة»⁽²¹⁾. والقصيدة التي هي أكثر نجاحاً، أو الرمز الأكثر نجاحاً، هو ذاك الذي يستوعب، بنجاح ويتوازن، أوسع مدّى للحقيقة. ومثل هذا الرمز صنيع «الشاعر الموصوف بالكمال المثالي»⁽²²⁾. ولا ينبغي أن نستغرب، إذن، وجود

(21) «في الشعر أو الفن On Poesy or Art»، في «السيرة الأدبية» 2، 255

(22) «السيرة الأدبية Biographia Literaria»، 2، ص 12.

أفكار دينية معبراً عنها بلغة رمزية: الله بوصفه أباً **God as Father**، روح الله ينقل الخطو فوق أمواه العماء chaos، والمسيح بوصفه راعياً، وحكايات مملكة السماء. وما عندنا هنا، كما هي الحال في الشعر، إنما هو «استخدامٌ لِلَّغة لا تُمثَل فيه الكلماتُ مصطلحات ذات معنى ثابت، بل يُنظر إليها بوصفها عناصر أساسية في حقلٍ للقوة، حيث تأخذ قيمتها من قيمة الحقل جملةً»⁽²³⁾. ونحن في مآسي شكسبير، لانعرف حقيقة ما يعني أيُّ جزء من المسرحية حتى يكتمل تعبيرُ المسرحية كلها⁽²⁴⁾. وطبيعي أن هذا، بمعنى ما، قصورٌ في اللغة الرمزية؛ فهي تقصرُ في الدقة. ولكنّه، بمعنى آخر، انتصارٌ لِلَّغة؛ لأنَّ «المظاهر المختلفة والمتعارضة ظاهرياً في التجربة الكاملة مضمومة بالوحدة التي هي خاصّتها الجوهرية، التي يُلغنها وحدها يمكن أن تُوصَّل إلينا على نحوٍ كافٍ»⁽²⁵⁾.

وبهذا المعنى تكون مثل هذه اللغة «مؤتمنة fiduciary»: فالرمز يطلب منا أن نثق بأنه حقاً جزءٌ من تجربة كاملة للحقيقة أكبر من الحقيقة نفسها.

ولعلّه في مثل هذا التقليد اللغوي يكون التعبير الرمزي، في المعنى الذي أراده كولريدج، ممكناً.

وحين يكون في مقدور الإنسان أن يقوم بفعل ثقة (فعل إيمان، حب، تسليم، كما كنّا قد سمّيناه) بالحقيقة وبإدراكنا للحقيقة، عندئذٍ فقط يمكن لعملية «العَلْيَة المتبادلة» أن تحدث. وبمثل فعل الثقة هذا، يستطيع ما كنتُ قد أسميته «خاصية السرِّ المقدس» للرمز، أن يعمل بحرية. ويستطيع التعبير الرمزي، سواء أكان بكلمات أم إيماءات أم صور، أن «يمجدنا»، كما سيقول كولريدج، ويُحدث استجابة وجودنا كلّها، موجّهاً إيانا نحو إدراك أعمق للحقيقة المكشوفة لنا داخلياً وخارجياً.

وما هو مثال الخلاف هنا أخيراً هو إمكانية إعادة بناء «حساسية موحدة».

(23) كولسون: ص 10.

(24) نفسه.

(25) نفسه، ص 11.

وكان هذا، بعد كل شيء، المفخرة الكبرى للتقليد اللغوي الأبر الذي يصنّف فيه كولسون كولريدج - تقليد شكسبير، ودون، وملتون، وتقليد اللاهوتيين في العهد الإليزابيثي والكاروليني - حين كان الفكر والشعور متّحدَيْن. وقبل أن تشطر الثورة الديكارتية الإنسان شطرين، كان ممكناً أن تُدرك الحقيقة إدراكاً رمزياً، وفق مراد كولريدج بهذه الكلمة، كان ممكناً إدراك كَلِيّة الأشياء، وكان ممكناً للإنسان غير المشطور شطرين أن يستجيب لهذه الكَلِيّة بكَلِيّة خاصّة به. لكنّه منذ أن فُرض مبدأ إليوت في «تقسيم الحساسية»، لم يُعد العالم واحداً، مثلما أنّ الإنسان لم يعد واحداً.

وكانت ماثرة لكولريدج أنّه أبصر الحاجة إلى إعادة إيجاد الحساسية الموحّدة التي قد افتقدت. ولم يكن أمامه، في التحليل الأخير، إلاّ سبيلٌ واحدة ليجدها - وذلك من خلال الرؤية الدينيّة. ولن يستطيع الإنسان أن يبصر المشهد الفاتن لكَلِيّة العالم، «شفافية السرمدي من خلال الزائل وفي الزائل»، إلاّ حين يكون في مقدوره أن يدرك العالم كما يدركه الله [جلّ وعزّ]، باشتراكه في العمل المبدع للوجود المطلق. وهذه الرؤية الرمزيّة ذات طبيعة مقدّسة جدّاً. إنّها اندياح الذات العلّية إلى الإنسان، واندياح الإنسان إلى الذات العلّية «من خلال الزائل وفي الزائل» - لقاء كلّ منهما الآخر في حبور الفعل الرمزيّ.

الفصل الثاني

كولريډج وشعرُ الإِشارة

كان كولريډج، على غرار وردزورث، مستاءً بقوة من حال الشعر في عصره والعصر السابق له. ولم تكن الغاية الكلية لمسعاه الشعري والنقدي إلا إعادة إيجاد الحساسية الموحدة التي فقدت، أن يحرّر شعر عصره من حال التوسّط في الجودة mediocrity، حسب تعبير (أودن).

وقد لاحظ (ج. أ. أبليرد) أن السيرة الأدبية Biographia Literaria - على الرّغم من صور الإسهاب التي يميّتها عائبوها - هي أساساً عملٌ موحّد. وهو يقول: إنّ لهذا الكتاب «شكل مناقشة، محاولة من جانب كولريډج لإقناع نفسه بوحدة فلسفته الأدبية. والمجلّدان، حسب بعض الاعتبارات، روايتان منفصلتان للمناقشة نفسها، والثانية محاولة أخيرة للنجاح على أسس مختلفة عن الأسس التي أخفقت فيها الأولى»⁽¹⁾. وعلى الرّغم من قوّة الحجّة في تحليل أبليرد، فإنّ رؤية أخرى لهدف كولريډج في «السيرة» ينبغي أن تُتبنّى. وهي ليست مناقضة لرواية أبليرد، بل تكملها. لأنّه يمكن أن يقال، بقدر متساوٍ من الحقيقة، إنّ مجلّدي «السيرة» محاولتان متوازيتان للإجابة عن أسئلة هي «ما

(1) فلسفة كولريډج الأدبية Coleridge's Philosophy of Literature : تطوّر مفهوم الشعر، 1791-1819 (كيمبريدج، ماساشوستس، 1965)، ص 171.

الذي كان خطأً في شعر القرن الثامن عشر؟» و«كيف ينبغي علينا أن نتابع مع شعراء اليوم؟».

وفي مطلع كل مجلد يلتفت كولريدج إلى شعر العصر الذي انقضى لتوّه، ليحكم عليه بقسوة: في الفصل الأول، في مبحثه «مقارنة بين الشعراء قبل السيد بوب والشعراء الذين جاؤوا معه»، وفي الفصل السادس عشر، في مبحثه «نقاط خلاف مشيرة بين شعراء العصر الراهن وشعراء القرنين الخامس عشر والسادس عشر»⁽²⁾. ويؤول به الأول مباشرة إلى مهمّة المجلد الأول، تاريخ تقدّمه نحو تحقيق وحدة القدرات الإنسانية؛ ويقوده الثاني إلى النقطة الأساسية في المجلد الثاني، مبحث تفوّق عبقرية وردزورث. وقد درس الفصل الافتتاحي كثيراً، لكنّ تشابه هذين الفصلين لم يُلحظ، حسب علمي؛ والحقّ أنّ الفصل السادس عشر لم يُدرس سوى دراسة يسيرة، حتى في التحليل الأكثر شمولاً لـ «السيرة»⁽³⁾. ويلوح لي، على الرّغم من ذلك، أنّ عودة كولريدج إلى موضوع نقائص شعر القرن الثامن عشر توحى برؤية جديدة لعمله الأكثر صميميّة.

وأيّاً كانت درجة القسوة التي يمكن أن نحكم بها الآن على حكم كولريدج الغضّ في شأن إعجابه بـ (وليم ليزل بولز)، ثم إعجابه الأقلّ بـ (الكساندر بوب)، فعلينا ألاّ نأذن لهذا أن يُغيّب عنا النوع الأعمق من الحكم الذي يقّده على شعر القرن الثامن عشر. ومهما يكن إكباره لـ «منطق العقل Logic of wit» (1، 11) عند (بوب)^(*)، فإنّ ما يحرمه «الاسم الشرعي للشاعر»، هو ما يسمّيه

(2) السيرة الأدبية Biographia Literaria، 1، 1: 2، 20.

(3) ليس هناك إشارة إليه، مثلاً، في الدراسات الممتازة لأبليارد (انظر التعليق رقم 1) وريتشارد هارنر فوجل، The Idea of Coleridge's Criticism (سيركي، كاليفورنيا، 1962)؛ أما ج. ف. بيكر، The Sacred River، فلا يشير إلى نصّ الفصل، بل يشير فقط إلى إحدى ملاحظات كولريدج.

(*) ذكر الكساندر بوب في قصيدته «مقال في النقد An Essay on Criticism» (1711) كلمة wit ستاً وأربعين مرّة بمعان ستة مختلفة، بعضها يدور حول معنى سرعة البديهة، وبعضها حول الإدراك والذكاء، وبعضها حول الأسلوب المجازي البليغ، وبعضها حول فكرة خير كلام في أرقّ أسلوب. (المترجم) عن: معجم مصطلحات الأدب - وهبة.

كولريديج «فاصل العطف The Conjunction disjunctive» في شعره: «الشيء الذي كان يبحث عنه في نهاية كل بيت ثان، وكان الكل، إن جاز القول، قياساً متسلسلاً، أو، إن أمكنني أن أستبدل الاستعارة النحوية باستعارة منطقية، فاصل العطف، للملح الذكبيّة epigrams» (1، 11). وإثر حكم مماثل على شعر (إيراسموس دارون) يحدّد كولريديج مشكلته بدقّة كبيرة في اختيار مقطعين من شكسبير وغراي. وفي مقطع شكسبير (من تاجر البندقية 2، 6) تبدو اللقطة الأساسية عند كولريديج بوضوح في أنّ كلّ كلمة تحكي، ولا شيء ضائع سدى أو زائد عن الحاجة:

ما أشبهه بفتى أو شخص مبذر،
ذلك المركب الملقع وهو يخلع كُمته الفطرية،
وقد عانقته وطوّقه الريحُ البغيّ
ما أشبهه بالشخص المبذر إذ يعود،
بالدعائم المعرضة للطقس والأشعة الممزقة،
وقد انحلتها الريحُ البغيّ ومزقتها وأفقرتها!

أما «محاكاة» غراي لهذا المقطع، في قصيدته «The Bard»، فتتحرك على نحو متقطع، إذ ليس ثمة مجاز واحد ناظم:

يتسم الصباح الجميل، وأنسام الريح الغربية تهب،
بينما يمضي المركب المذهب بزهو ممتطياً صهوة
العالم اللازوردي في زينة مترفة،
شباب في المقدمة وسرور في الدقة؛
غير مبالٍ بتأرجح الزوبعة الجارفة،
التي سكنت في هدأة كالحة، تنتظر فريستها المسائية.

وعلى الرغم من أنّ كولريديج يعلّق بقوله: «آثرتُ الأصل على أساس أنّه في المحاكاة يعتمد كليّة على وضع منضّد المطبعة، أو عدم وضعه، الحرف الاستهلاكي الصغير، في هذا المقطع، وفي مقاطع أخر كثيرة للشاعر نفسه، سواء أكان ينبغي أن تكون الكلمات تشخيصات، أم تجريدات صرفة» فإنّه يغدو واضحاً في الصحائف التالية أنّ نقده أوسع من هذا. لأنّه يخلّص إلى أنّ ثمة

«اختلافاً كبيراً واحداً» حتى بين النقايس المميّزة للشعراء قبل بوب - وهو يفكر الآن بآخرين غير شكسبير - وبين «الجمال الزائف للمحدثين»: فعند الأولين، من دون إلى كاولي، نجد الأفكار الأكثر خيالية وغير المألوفة، ولكن في الانكليزية الأم الحقيقية الأكثر خفاء؛ وعند التالين، نجد الأفكار الأكثر وضوحاً، في اللغة الأكثر خيالية واعتباطية. والخطأ الرئيس عند «المحدثين» هو «سطوع وتألّق للغة مجازية دائمة، وإن تكن محطمة، ومتغايرة الخواص، أو على الأصح شيئاً برمائياً، مركباً، نصفاً من صورة، ونصفاً من معنى مجرد» (1)، (15). ومن هنا، ليست نقطة الخلاف قضية لغوية صرفة - «الإنكليزية الأم الحقيقية» - لكنها قضية وحدة وجهة النظر والانطباع. ونُجلى في اختيار الألفاظ، ولا نُجلى إلا على هذا النحو، لكنها شيء أبعد من مجرد الكلمات نفسها: «إعجابنا الحقيقي بالشاعر الكبير هو تيار شعوري داخلي لا يتوقف، وهو مائل في كلّ مكان، لكنه نادراً ما يوجد في مكان في صورة إثارة منفصلة» (1)، (15-14).

وإن نحن التفتنا، من ثم، من الفصل الافتتاحي إلى الفصل السادس عشر مباشرة، فربما نكون مهئين لأن نقرأ، بعين جديدة، هذا الفصل المهمّل، جامعين (على نحو مناسب) بين فصل موجز لكنه متألق عن شكسبير وأول الفصول الشهيرة عن وردزورث. وفي الفصل الذي موضوعه شكسبير أصراً كولريدج على أنّ الصور «لا تصير براهين على العبقرية الأصلية إلا بقدر ما تكيفها عاطفة مهيمنة، أو أفكار متداعية، أو صوراً أيقظتها تلك العاطفة؛ أو حين يكون لها اختصار التعدّد في الوحدة؛ أو التعاقب في اللحظة، أو أخيراً، حين تحوّل إليها الحياة الإنسانية والعقلية من روح الشاعر الخاص، «الذي يطلق وجوده في الأرض، والبحر، والهواء» (2، 16) (4). وخلافاً لشكسبير، فإنّ «شاعر العصر الراهن» يرمي إلى «صور جديدة وجذابة» و«أحداث تشير العواطف أو تثير حبّ الاطلاع». أما خصائص الأشياء عنده وأوصافه لها فإنها،

(4) المقبوس، وقد عدل قليلاً، مستمد من France: An Ode الخاصة بكولريدج، 1، 100.

قبل كل شيء، «دقيقة ومستقلة، إلى درجة فنّ التصوير»، لكنّه، نسبياً، يهمل أسلوب العبارة الشعرية والوزن (2، 21). أما حين يعود كولريديج إلى شعراء القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فإنّه يصير جلياً أنّ أكثر ما يهتمّه إنّما هو الصلة بين الأجزاء والكلّ. ولغتهم المجازية عامّة عادةً: «فالشمس، والقمر، والأزاهير، والنسائم، والجداول الرقراقسة، والمغنّون الصادحون، والظلال البهيجة، والفتيات الحسان القاسيات كالحب، والحوريات، والنيادات (حوريات الماء) والإلهات، هي الموضوعات الشائعة عند هؤلاء، جميعاً، التي صاغها ورّبها كل منهم وفق حكمه أو وهمه، تائقاً قليلاً إلى الزيادة أو التخصيص». والأفكار، أيضاً، «جديدة نسبياً كالصور». وما كان مهمّاً هو الفنّ «الترتيب المدروس للكلمات والتراكيب، حيث إنّّه لا ينبغي أن يكون كلّ جزء منعماً في ذاته فحسب، وإنّما ينبغي أن يُسهم في إيقاع الكلّ» (2، 23).

وطبيعيّ أنّ لأفاضل الشعراء المحدثين مناقبهم الخاصة، المناقب التي يشترك فيها (كما أحسّ كولريديج) تعميم أسلافهم. وإذا كان «الشعراء الأسبقون» قد امتلكوا «الكمال العالي، واللياقة، والبراعة، والتناسب الممتع، ثم فوق كلّ شيء، الجمال المفعم والكلّي الوجود»، فإنّ للمحدثين مناقبهم الخاصة: «غريزة ماضية، واستمالة للنفوس عميقة، وتأمّل قوي، ولغة مجازية عذبة ومتنوعة، مما يعطي وزناً وشهرة خالدين للشعراء الذين شرفوا زماننا، ولأولئك الشعراء من أسلافنا المباشرين» (2، 24). أمّا تحديّ العصر الحاضر، فكان العودة إلى «العبقري، الذي ينبغي أن يحاول ويوجد اتّحاداً» (2، 24). وقد اعتقد كولريديج أنّه بمثل هذا الاتّحاد للفضائل فحسب، يمكن أن يتغلّب على نقائص الفريقين. ويقف شكسبير وملتون بعيدين عن هذا على نحو واضح، أمّا الباقيون فإنّ الشعراء القدامى أخطأوا غالباً في الإفراط في التعميم - مضحين بالتحديد في سبيل إيقاعية الشكل الفنيّ؛ وأما المحدثون فقد ضحّوا بالتعميم وبإيقاعية الشكل معاً التماساً منهم للجذّة، التي تُحقّق عادةً من خلال الفردي، وحتى الشاذّ. وواضح أنّ المسرح كان مهياً للفصل التالي عند كولريديج، عن وردزورث «العبقري» الذي سوف يحلّ العضلة، والنظير للمتون، والنظير تقريباً

لن لا نظير له، شكسبير. أعد المسرح لضرب جديد من الشعر.

وقبل أن نيم شطر الشعر الجديد، سيكون مفيداً لنا أن نتساءل: أكان كولريديج حكماً قاسياً جداً على الشعر القديم؟ ربما تكون الإجابة نعم. فقد كان يحاكم أسلافه المباشرين على هُدي من رؤيته الجديدة لما ينبغي أن يكون عليه الشعر؛ ومن هنا، فإنه ما كان، غالباً، يرى امتيازاتهم الحقيقية تماماً. وابتغاء فهم أفضل لهذه الرؤية، دعنا نقف لحظة في موقف كولريديج، ونحاول أن ندرس ما رآه في ضوء مبادئه الشعرية. دعنا، خاصة، نختبر تجربة النظر إلى شعر القرن الثامن عشر بالمقارنة مع خلفية فكرته عن طبيعة الرمز، التي كنا قد أخذنا عنها قبل فكرة تمهيدية. وما دام الخيال، أساساً، ملكة صناعة الرمز، فإننا قد نتساءل (من هذا الموقف الكولريديجي) عن مدى تحقيق شعر القرن الثامن عشر فكرة كولريديج عما يشكل الرمز.

ماذا يمكننا أن نتوقع العثور عليه في شعر الرمز؟ يبدو أحياناً كثيرة هذا الذي قد رأينا توأماً كولريديج في سيرته الأدبية ينغى ضياعه. وكيفما كان تجليّه - في أسلوب العبارة الشعرية، أو الوزن، أو الصورة الإيقاعية، أو ذلك «التيار الشعوري الداخلي الذي لا يتوقف» «الحاضر في كل مكان» - فعلى المرء أن يتوقع وجود التوحد oneness. وهو، قبل كل شيء، توحد التجربة نفسها، وعلى الأقل كما تصل إلينا - التوحد الذي يظهر أن إمساكة مفردة من الخيال هي التي حققت. وهو، ثانياً، توحد الشاعر والشيء الذي يعانیه، ذلك الذي يكون فيه الشاعر نفسه جزءاً من التجربة التي يرسمها. وهو، أخيراً، عندما تكون الحقيقة غير المحسوسة جزءاً من التجربة، توحد المادة والروح، وحتى توحد الروح الحال والمتعالي. وجلي أن خطي المناقشة اللذين كنا قد شرعنا بهما يلتقيان هنا: وحدة جوهر الرمز - الذي «ينضح بالحقيقة التي يمثلها واضحة» - والعبرية الشعرية التي لها فعالية «اختصار التعدد في الوحدة» - «الحاضرة في كل مكان، وإن كانت نادراً ما توجد في مكان في صورة إثارة منفصلة». دعنا نأخذ مثلاً «ترنيمة في العزلة Hymn on Solitude» لطمسون (1729)، وهي قصيدة

أغودجية للتقليد التأملي في القرن الثامن عشر. وتُفتتح بالفتات أغودجي:

مرحباً، أيتها العزلة التي تبهج بلا سرف.
يا رفيقة الحكيم والخير⁽⁵⁾.

والصلة بالشاعر مقررة - وحتى نوضح أكثر نقول: ينبغي أن يُعترف بها:

أه! كم أحب أن أسير بجانبك،
وأشغف أذني بعديثك الهامس.

وما يأتي بعد ذلك - وهو بقية القصيدة تقريباً - تمثيل، محتفظ بسحره،
للنزاع:

تظهرين بالآلاف المظاهر دون عناء،
وتظلين في كل مظهر في سراء.

والعزلة أيضاً فيلسوف، عصفور يجوب السماء، راع، عاشق مشبوب بعاطفة
محبة، صديق. وهي صباح، وظهيرة، ومساء. وهي رمز ملكي، تحف به
الملائكة، والفضائل، والدين، تحف به الحرية ويورانيا^(*). والعزلة، أخيراً،
تسكن «الأعماق السحيقة» في «هضبة مكسوة بالبلوط، وهناك يستطيع الشاعر
أن يجد ملاذاً حين يغدو مشهد لندن في المتأني «جرائمها، وهمومها، وآلامها» -
أكبر مما يستطيع أن يتحمل.

ليست هذه قصيدة تافهة، إنها قصيدة جميلة في نوعها، وقد يقول المرء:
«تبهج بلا سرف»، كالعزلة نفسها. ولن تكون النقطة الأساسية هنا مسألة أنها

(5) ما لم يعلّق من نواح أخرى، فإنّ كلّ المقبوسات من شعر القرن الثامن عشر مستمدة من A
Collection of English Poems، 1800-1660، طبعة رونالدز س. كرين (نيويورك،
1932).

(*) موزية الفلك عند الإغريق (المترجم)

(6) ينبغي أن أشير إلى أنني حتى الانتهاء من هذا الكتاب لم أقرأ الدراسة القيمة لفريدريك جيربر
«وردزورث وشعر اللقاء» Wordsworth and the Poetry of Encounter (أريانا، 111،
1971). ولهذا، فإنّ استخدامي مصطلح «شعر اللقاء»، على الرغم من أنه مشابه من بعض =

ليست شعراً جيداً، بل مجرد أنها شعر من نوع خاص. يمكننا أن ندعوه شعر «إشارة reference» أكثر من أن يكون شعر «لقاء encounter». أعني بهذا، أنه يشير إلى أشياء. فهو يشير إلى أشياء، وإلى أشخاص، وإلى مشاعر، وإلى حقائق روحية؛ لكنه لا يلاقيها، أو يساعدنا في لقاءها. إنه شعر مجاز - حادّ ومعبر غالباً - لكنه ليس شعر رمز. وفي المجاز نكون مدركين أولاً الاختلافات بين الأشياء المشار إليها («حبي»، الـ «أحمر»، «وردة حمراء»)، ثم نأتي لنرى خاصية ما أو خاصيات مشتركة فيما بينها. أما في الرمز فنكون مدركين أولاً الوحدة (وردة إليوت، شجرة بيتس أو برجه)، ولا نصير إلا تدريجياً مدركين تعقيده. وفي قصيدة طومسون تمتد المجازات من التشخيص الرخو في الالتفات الافتتاحي - حيث لا نكون متأكدين حتى من جنس رمز العزلة - مروراً بالاصطلاحي الصرف («راع من ثم؛ يلزم السهل، وتصدح بلحنك الشوفاني») - إلى المجازات الرشيفة والمتوتبة في آخر النهار:

لكن أيها الزعيم، حين تذوي مشاهد المساء،
ويسبح المنظر الطبيعي الريفي الباهت بعيداً،
فإن لك الذبول الناعم المبهم،
ولك أفضل ساعة للتأمل.

لكنها، حتى في أحسن ما فيها، وهو ممتاز حقاً، تظل نسيجاً بارعاً من المجازات. وليس لدى الإنسان إحساس بأنها منجزة بفعل إمساكية فذة من الخيال. إذ تبدو، نسبياً، تفصيلاً لسلسلة كاملة من التجارب التخيلية المنظمة بتأمل كأنها مناقشة استقرائية. ورغم تأكيدها الشعور تظل شعر فكر - فكر مترجم، ترجمة رائعة - إلى مشاعر قد أثارته سلسلة من التجارب التخيلية. والقصيدة نفسها عمل للوهم، وليس للخيال.

وحتى الشاعر نفسه يظل، على نطاق واسع، بعيداً عن تجربته - ربما يعود

= النواحي، لا ينبغي أن يلتبس باستخدامه. وإشارتنا إلى المصطلح في الوقت نفسه تقريباً، محض مصادفة (المؤلف).

ذلك فحسب، إلى أنه مستغرق جداً في التفكير - لأن فكره يحول بينه وبين تجربته. وهو يرحب بالعزلة بوصفها شيئاً ما بعيداً عنه؛ وهو يناشد العزلة أن تدعُه «يتسلل إلى صومعتها السرية»؛ وفي مقدوره أن يتأمل «آلاف مظاهرها»، لكنه عاجز عن أن يشاطرها حياتها.

وأخيراً، في اللمحة السريعة للحقيقة المتعالية،

إشراقات الدين تشع حوالبك،

وتنير ظلماتك بنور إلهي،

يظل المتعالي بعيداً، متنحياً جانباً. يتألق النور، ولكن من مصدر غير مرئي بعيداً. ولا تصير المادة والروح شيئاً واحداً في الرؤية؛ والحال والمتعالي يومية أحدهما إلى الآخر فحسب. هناك إشارة، ولكن ليس ثمة لقاء. ثمة انقطاع ليس بين الفكر والشعور فحسب - تفكيك إليوت للحساسية - بل بين الحال immanent والمتعالي transcendent. وكما تقول (باتريسيا مير سبكس Patri- cia Meyer Spacks) عن طومسون في كتابها «شعر الرؤية»: «في لغة (طومسون) المجازية لا يكمن المعنى حقيقة في المنظر الطبيعي الريفى؛ إذ يُحس به بوصفه ثمرة للخيال الإنساني أو العقل وهو يتأمل المشهد الطبيعي»⁽⁷⁾. وتمضي قائلة: «حين يقول (طومسون)، «مرحباً، يا مصدر الوجود! أيها الروح الشامل، / للسماء والأرض!» فإنه «يوسّع الصلة بين الألوهية والعملية الطبيعية»⁽⁸⁾. تلكم، ليس غير، النقطة الأساسية، ليس في شأن الصلة بين

(7) شعر الرؤية: خمسة شعراء من القرن الثامن عشر - The Poetry of Vision: Five Eighteenth Century Poets (كيمبردج، ماساشوستس، 1967) الصفحات 22-23. ويبدو أن

رالف كوهن يقول بالشيء نفسه تقريباً عندما يعلق على «الفصول The Seasons» قائلاً: «كان مؤلفاً من أجزاء متنوعة، وكان هدفه إقامة صلات وتعارضات بين الطبيعة، والحيوانات، والإنسان، والله. وهكذا أوجد طومسون علماً من الأحداث المترابطة في المكان،

لكن هذه ما آلت إلى مزيج متناغم إلا على نحو اعتباطي». The Unfolding of the Seasons (بالتيمور، 1970)، الصفحات 326-327.

(8) أخذت الأبيات من «الفصول The Seasons»، «الربيع»، 2، 557-556.

الحال والمتعالى فحسب، وإنما أيضاً بين الفكر والشعور، بين الشاعر وتجربته، بين القصيدة والقارىء. هذه الصلات ينبغي أن «تُحكم» تماماً لأنها لا تُحقق بإمساكة مفردة من الخيال. إنه شعرٌ مجازيٌّ، لكنه ليس رمزياً. و«شعر الرؤية» الذي تكتب عنه سبكس هو، عموماً، رؤية لشيء بعيد، وليس رؤية لحضور حال. ويمكن القول بإيجاز إننا لا نجد الوحدة في التجربة نفسها؛ ولا نجد وحدة عميقة بين الشاعر وتجربته؛ ولا نجد، أخيراً، وحدة المادة والروح، وحدة الحال والمتعالى.

وأكثر براعة ونجاحاً من هذه إلى حد بعيد قصيدة وليم كولنز «أغنية للمساء» Ode to Evening (1747). فبينما كانت «ترنيم» طومسون إلى حد ما مفتكة - سلسلة معقدة من المجازات أكثر منها مجازاً واحداً مُحكماً - إذا قصيدة كولنز أكثر ضبطاً وتوحداً. والمساء المشخص أكثر تميزاً في الموجز منه في رمز طومسون للعزلة. وواضح أنه رمز أنثوي، وهي منسجمة دائماً: حواء عفيفة، وحيورية مصونة، وسيّدة رابطة الجأش، وعابدة هادئة، وحواء حليلة. وهي تنفث وتثير روحاً من الوقار. ويجمع حولها - حيث تذكر «عودتها» بأحد المواكب العظيمة في «ملكة الجان The Faerie Queen» - كل الرموز المجازية الأخرى في القصيدة. وهي ليست مركزاً للحركة فحسب، بل مركز الثقل أيضاً. وثمة مطالب رعوية تقليدية: «الحاجز الشوفاني» و«الأغنية الرعوية». وهناك الصفات الطبيعية للريف: ينابيع وعواصف، البحيرة والمرج و«المرتفعات المريحة من الزراعة». وثمة رموز مرتبطة بالمساء نفسه: الشمس الغاربة؛ الـ«خفاش الضعيف البصر»، الوادي المظلم، النجم يخلق، وجنيات الليل وحيورياته. وهناك صور الفصول: الرياح الباردة، المطر النهمر والفيضانات المزبدة؛ وزخات الربيع؛ «ضياء الصيف المتباطيء»؛ الـ«خريف الشاحب» الذي - بالجمال المثير - يملأ حضنك بالأوراق. وهذه كلها مرتبة بفتية كاملة حول رمز المساء الهادىء.

ثمة حركة مزدوجة معقدة لموكب المساء أيضاً. وكأن هناك في الوقت نفسه موكبين، عودتين، تحدثان في إطارين من الإشارة مترامين ومتميزتين، لكنهما

ليسا منفصلين. فهناك، أولاً، العودة اليومية للمساء، جالبة «متعها الحاملة»، وموجهة الشاعر بلطف إلى أن يتأمل - أي شيء؟ - السكون؟ هناك، إذن، موكب مصاحب لكنه أبطأ، يُربط فيه المساء مجازياً بمرور الفصول. وهي ليست مجرد أمسية يومية؛ إنها أمسية الشتاء، أمسية الربيع، أمسية الصيف، أمسية الخريف. ويستنتج الشاعر أنه لا فصل من الفصول غير خاضع لـ «تأثيرها الألف».

ولا ريب في أن قصيدة كولنز «معجزة أداة فلذة». وهي تكشف عن الوهم Fancy وهو يعمل في أعلى درجات عمله، تلك الملكة التي، حين تعمل جيداً، لم يكف كولريديج عن تبجيلها، على الرغم من أنه وضعها تحت مرتبة الخيال. (كان عمل الوهم ضرورياً، في آية حال، حتى لوردزورث، وشكسبير، كما سنرى). التعقيد المجازي في «أغنية للمساء» مضبوط تماماً ومعدل بدقة، وينتقل بسهولة من حركة اليوم إلى حركة السنة المارة. حتى إنه هناك إحساس - وهو غائب في «ترنيمة طومسون» - برؤية مفردة. لكنه على الرغم من ذلك، ثمة أيضاً إحساس رقيق برؤية «فكر فيها»، ومن ثم نُفذت شعرياً بفعل عقل قوي ومبدع. وهناك أيضاً انطباع برؤية موصوفة أكثر منها تجربة مشتركة. وفي هذا الوقت، نشعر بأننا أقرب إلى التجربة، لكن لسنا هناك تماماً. إنه شعر إشارة أكثر منه شعر لقاء.

ونقول مرة أخرى إن الشاعر وتجربته ليسا بشيء واحد حقاً. وتظل الأمسية معلماً:

والآن علميني، آيتها السيدة الهادئة،
أن أحمس بلحن ناعم.

وهو يرحب بـ «عودتها المحببة اللطيفة»، وإن كان لها أن توجه فإنه يعد بمتابعتها. لكنها رمز يتبعه، وليست حياة يشارك فيها. والتأثير اللطيف الذي تسكبه يشبه كثيراً «النور الإلهي» عند كولنز: الذي يأتي من مصدر بعيد.

وما تشعر به البروفسورة سبكس إزاء طومسون يمكن تطبيقه، على نحو

مماثل، على واحد من أعظم شعراء العصر، (توماس غراي): «لا يكمن المعنى حقيقة في المنظر الطبيعي، ويُشعر به بوصفه نتاجاً للخيال الإنساني أو العقل وهو يتأمل المشهد الطبيعي». وحين يحسّ المرء القوة الواضحة، كذلك، في «مرثاة مكتوبة في فناء كنيسة ريفية» (1750) يُضطرّ إلى إضافة أن هذا الابتعاد عن «المعنى» هو نفسه يمكن أن يكون جزءاً مهماً من نمطها الخاص في القوة. وإن يكن ثمة قوة عاطفية في الانجذاب الى تجربة، فثمة أيضاً قوة عاطفية، أيّاً كانت درجة اختلافها، في البقاء بعيداً عن التجربة والاستجابة لها مع ذلك. والوتر الذي يهتز تأثيراً بجواب واحد one an octave بعيد منه يُؤثّر فيه في طريقة ليس أقلّ حقيقة من الوتر المعدّل على الأصل تماماً. وليست الصلة أفضل أو أسوأ، بل مختلفة فحسب.

إنّ «مرثاة» غراي، شأنها شأن «ترنيمة في العزلة» لـ (طومسون)، شعر إشارة. إنّها قصيدة ذات نبل هائل ومثير تأملي للعطف. وهي، في إحساسها ذي الطابع الطقسي والمهيّب، في تقليد الشعر الموكبي العظيم. وأيّاً كان اختلافها عن قصيدة طومسون في نواح أخرى، فإنّها مشابهة لها من وجهة أنّ القارئ لا يدخل التجربة في أيّ من القصيدتين. وفي قصيدة غراي يُدعى القارئ ليقف ويراقب، ولتكون لديه عين أكثر إدراكاً وتشير إلى معنى الأشياء العادية التي نراها جميعاً. إنّها، دونما استحياء، شعرٌ معلّم. وسيجعلنا الشاعر نراها ونسمعها كلّها: الناقوس المقروع، القطيع الخائر، الحراث، المشهد الطبيعي المعتم، الهدوء الصامت والواضح للمقبرة. وسيخبرنا ماذا تعني، وأيّ مواعظ تقدّم لنا من هذا العالم الهادئ «بعيداً عن التنازع الخسيس لحشد مجنون». وأخيراً، فإنّه سيسحب تفكيرنا من دروس عن الغناء إلى ذلك العالم الآخر الذي يقيم فيه «أبوه وربّه».

ولا يؤثّر فينا غراي لأننا نشركه تجربته، بل لأننا «أرواح أشقاء» له، لأنّ لنا تجربة مماثلة خاصة بنا. وكذا نحن نتأثّر بالفناء في حيواتنا الخاصة - على الرّغم من أنّنا معدّلون على جواب أعلى أو أدنى من جوابه - ولديه قوة الإثارة من

خلال مجازات نعرفها، ذكريات من تجربتنا الخاصة. وهي إثارة لتجربة جديدة أقل منها تجربة أحس بها ذات يوم وتُعاد فينا الآن. وفي كلمات كوبر:

في النفوس ميلٌ إلى الأصوات،
وحين يُجعل العقلُ في مستوًى ما تُبهج الأذنُ
بالأنغام الرقيقة أو الشديدة، الخفيفة أو الرزينة.
وإنّ وترًا متساوياً مع ما نسمع
موصولٌ بداخلنا، فيجيب القلبُ.
وحيثما سمعتُ
لحنًا شقيقاً، لطيفاً
يعود المشهد،
مُصاحباً بكلّ أفراحه وأتراحه.

(The Task - الكتاب السادس)⁽⁹⁾

حتى إنّ الإحساس بالتوحد بين الشاعر وتجربته ربما يكون لدى غراي أقلّ منه لدى طومسون. وليس هذا اتهاماً بالزيف أو المداخلة، بل مجرد تأكيد أنّ الشاعر يحافظ على بُعدٍ خَديرٍ عن تجربته؛ ذلك أنّه أيضاً يراقب الموكب، أو التطريز، مع القارئ. أما بالنسبة إلى القارئ، فإنّه دليل محبّب. لكنّه ليس أنا ثانية alter ego ولا مؤتمناً ودوداً. وربما يكون قريباً من «المشاهد اللامبالي» ذي الطراز القديم في القرن الثامن عشر، الذي يمثّل عادة انسحاباً إلى العزلة الريفية بوصفها نقيضاً للانهماك في الحياة العملية. ويبقى هناك، أخيراً، أكثر حتى من بُعدٍ خَديرٍ - إنّهُ على الأصحّ «ثُغرة واسعة مثبته» - بين فناء كنيسة ستوك بوجز الهادئ وبين «المقرّ المهيب» لله. ويظلّ هو الشعر الذي يشير إلى الطريق بواسطة المجاز، وليس شعر لقاء.

إنّ مواهب وليم كوبر الأنموذجية تماماً للقرن الثامن عشر تجعل منه شاعر

(9) وليم كوبر: الواجب The Task، الكتاب السادس، في كوبر: شعر ورسائل، طبعة مريانا سبلر (كيمبريدج، ماساشوسيتس، 1968)، صفحات 514-515. وكلّ المقبوسات من القصيدة ستكون من هذه الطبعة.

الحياة اليومية. وفي مقدوره أن يحتفي بمرور الفصول، و«العصفور الوفي»، وحتى بشيء منزلي كالأريكة؛ لكن هذا ربما يكون عجزاً بقدر ما هو موهبة. وهو أنموذجي لجمهرة شعر القرن الثامن عشر حيث ينبغي أن «يتسامى» بالأشياء العادية إلى أشياء شعرية. ويظل عالم الشعر وعالم الحياة اليومية عالمين مختلفين. وليس عالم الحياة اليومية في ذاته «شعرياً». ذلك أن الشعر شيء يُضاف، تزيين للحياة العادية بأردية مستعارة.

ويعيد هذا إلى الذهن ثنائية مبدأ «تفكيك الحساسية» المزعج جداً، الذي قال به إليوت. حيث ذهب إلى أن شعراء القرن الثامن عشر «فكروا وشعروا، ودوماً اتصال بين الفكر والشعور ودوماً توازن؛ لقد تأملوا»⁽¹⁰⁾. والحق أن هذا ما أريناه في هذا الفصل - الشعر التأملي. وتتضمن عبارة إليوت ثنائية، لكنها ليست ثنائية أشياء متميزة فحسب، بل أشياء منفصلة. وهي توحى بفكر وشعور «يشير كل منهما إلى الآخر» وكأنه يشير إلى شيء بعيد.

وتوجد هذه الثنائية نفسها حتى في أعظم قصائد كوبر «الواجب The Task». وما أضعه في الحسبان ههنا ليس فحسب الطبيعة الشاملة للقصيدة؛ أعني، بعد كل شيء، نصف السبب في روعتها على الأقل. ولست أقول بأنها ليست قصيدة موحدة. بل إنها، خلافاً لاعتقاد كثيرين من القراء، العرضيين، عملٌ منظم بعناية. ومهما يكن، فإن وحدتها وحدة فكرة. وطبيعي أن «واجبه» الذي حدّته له السيدة (أوستن)، هو أن ينظم قصيدة من الشعر المرسل حول أريكة. لكنه لا يطول الوقت قبل أن نرى أن «الواجب» أكبر حجماً من هذا. إنه الواجب الملقى على عاتق المسيحي: كيف يستقيم مع الله والعالم من حوله. ويغدو واضحاً حالاً «أن العالم المفصل على نحو جميل الذي يضعه أمام أعيننا - القبور، الجداول، أهل الريف،

(10) ت. س. إليوت: «الشعراء الميتافيزيقيون»، مقالات مختارة، (نيويورك، 1932)، ص 248.

الهواء الشافي لروايها العالية،
والأريج المنعش لأوديتها الندية،
وموسيقى غاباتها -

إشاراتٌ لشيءٍ آخر. كما يعبر عنه بريان سبلر: الصور القلمية لمنظر طبيعي ريفي، حين تُلحظ بوضوح فوتوغرافي ذي تفاصيل، هي توضيحات للمباهج الصحية في الحياة البسيطة؛ والتعليقات على الأحداث المعاصرة تربط بفكرة كوبر عن العالم؛ والانحرافات، من قبيل تعليقات زراعة الخیار، تتحول إلى أمثال⁽¹¹⁾.

وهذه فكرة موحية جداً. ويجد المرء نفسه مُغرَى أن يسأل عما إن كان يمكن أن تكون القصيدة كلها ضرباً من المثل. ولا ريب في أن هذا سيعني أن نقول كلاماً كثيراً. لكن التمثيل قد يكون مفيداً. فالمثل، شأنه شأن المجاز، يقتضي خطين قصصيين: ينطلقان متوازيين، لكنهما لا يلتقيان؛ يشير أحدهما إلى الآخر، لكنه لا يشرك أحدهما الآخر حياته. وهناك انفصال عمائل في «الواجب». فالتفاصيل الرائعة والمؤثرة للحياة الريفية تشير إشارة، وإن لم تكن الشيء نفسه تماماً، إلى الدرس الذي تعلمه، في أن «اللَّهُ صنع الريف، والإنسان صنع المدينة». والإلماعات إلى القضايا المعاصرة تشير، وإن تكن منفصلة، إلى دروس من قبيل:

لا ريب في الحاجة إلى التبادل الاجتماعي،
إلى الخير والسلام والعون المتبادل
بين الأمم، في عالم يلوح
أنه يقرع ناقوس الموت لموته هو،
وبصوت عناصره جميعاً
يذكر بيوم الحساب

ربما نكون ذهبنا بعيداً جداً. ولا ريب في أن هناك الكثير لدى كوبر مما هو أنموذجي للقرن. وثمة الإحساس نفسه بـ «البُعد الحذر» بين الشاعر والقارئ؛

(11) كوبر: شعر ورسائل Verse and Letters، ص 394.

ثم إحساس مماثل بالبعد بين الحقيقة المتعالية والحالة - على الرغم من أنه مختلف جداً عن بُعد الربوبيّ deist عن الله، الذي يرفضه (كوبس) بأسلوب مؤثر جداً في الكتاب الأخير من قصيدته :

روح واحد - له
هو الذي غطى الأشواك المصقولة بحواجب نازقة،
ويحكم الطبيعة الشاملة، وليس هناك زهرة
لا تُبدي أثراً ما في غمش، أو خط، أو بقعة،
من آثار ريشتها الفضة.

(الواجب The Task، الكتاب السادس، 521)

أما عند كوبس فإن وحدة التجربة نفسها شيء آخر أيضاً. وعلى الرغم من أن نموذج كوبس في نواح محددة، فإنه شاعر انتقال. وليس كوبس، بين شعراء القرن الثامن عشر، الشاعر الأكبر قيمة بعد بوب فحسب، فهو أيضاً (مع كروستوفر سهارت) الشاعر الأقرب في الروح إلى الشعر الجديد الذي ولد إثر ذلك مباشرة.

لقد قلنا عن وحدة قصيدة «الواجب» إنها، أساساً، وحدة موضوع. لكن المرء يظل في حيرة في شأن كوبس: فهناك شيء أكثر. وليس ما يرجع بنا إلى القصيدة هو السهولة المحببة في الشعر، وبساطة العبارة الشعرية، وخلابة الصور الريفية فحسب، إنه الإنسان نفسه، هذا الذي يلمح ويُسمع بين الأبيات وداخلها. وإذا ما كانت ههنا، مثلما هي الحال في الكثير من شعر القرن الثامن عشر، مسافة بين الحال والمتعالي، وبين الشاعر وتجربته - كالذي قلنا عن طومسون من أن فكره كثيراً ما يبدو حائلاً بينه وبين تجربته - فهناك أيضاً شيء مختلف: توحد رائع للرؤية، وعي من جانب الشاعر نفسه. وهذا قد يفكر ويشعر بتقطع، لكننا نظل نحس أن إنساناً واحداً هو الذي يفعل الأمرين. ولا نستغرب أن نجد كولريديج يقول عن كوبس - وعن محبوب كولريديج (وليم لينزل بولز) - لقد كانا «في أحسن أحوال علمي، الأولين اللذين وحدنا بين الأفكار

المتصلة بالطبيعة والأسلوب الطبيعي؛ الأولين اللذين جمعاً شمل القلب والرأس»⁽¹²⁾. بدأنا مع (كوير) دخول نطاق الجاذبية الأرضية لعالم شعري جديد، يكشف فيه الشاعر نفسه لقارئة بقدر أكبر وفي حرية أكثر.

قد يكون ما يثبت هذا الاختبار، في قراءة شعر القرن الثامن عشر بلغة المبادئ الكولريديجية، عجز تلك المبادئ. ويؤيد هذا حقاً ما كنا قد رأيناه من صور النقد القاسي التي مارسها كولريديج على «الشعراء المحدثين» في «السيرة». وثمة قدر كبير جداً من التهور في رؤيته شعر القرن الثامن عشر. لشيء واحد، وهو أنه كثيراً ما يبدو متجاهلاً سعة هذا الشعر وتنوعه. وإنها لل لحظة نادرة أن نجده مدفوعاً إلى أن يميز حتى أكبر أنواع شعر أسلافه - شعر العقل، مثلاً، من شعر العاطفة. وإحدى هذه اللحظات النادرة في مذكرة مخطوطة (تعود إلى حوالي سنة 1796) في صدد «تاريخ - مقترح - للشعر الانكليزي»؛ حيث يميز هناك بين «درايدن و... . المناطق البارعين» (الذين لا يجعل منهم بوب فقط، بل بن جونسون، ودون، وكاولي أيضاً) وبين «الشعر المحدث»، الذي يعني به كوير، وبرنز، وطومسون، وكولنز، وإكنسايد، وآخرين⁽¹³⁾. ويمكن القول عموماً أيضاً إن أعداءهم فقط (كما في السيرة) «الشعراء منذ السيد بوب»، وفيهم بوب نفسه. وجريرة هؤلاء، أساساً، أنهم ليسوا وردزورث.

وفي عمل هؤلاء «الأعداء» لم يكن عند كولريديج إحساس صحيح تماماً، مثلاً، بقيمة «اللياقة decorum» - كما هي عند بوب - منشغلاً جداً بتحجيره في قوالب جامدة لدى كثير من أتباعهم. ولم يكن يحسّ بالإمكانات الدقيقة للدور the couplet، وقد كان مهتماً جداً بالحركة الرشيقية والعضوية في القصيدة كلها. ولم يدرك تماماً أنه قد يكون هناك حدة في العقل، وهكذا كان منشغلاً بالحاجة إلى حدة الرؤية. كان متيهاً بالحدة الشخصية والخيالية لوردزورث،

(12) السيرة الأدبية Biographia Literaria، 1، 16.

(13) روح البحث Inquiry Spirit، طبعة كاثلين كويرن، (لندن، 1951)، ص 153.

بحيث إنه وجد صعوبة في رؤية جماليات غراي المشالانية(*) أو الموكبية . ولم يبدُ مدركاً كم كان شعراء أواخر القرن الثامن عشر أنفسهم يغالبون، بنجاح غالباً، قيود الكلاسيّة الجديدة، محاولين أن يلقوا عن كواهلهم (حسب تعبير و.ج. بيت) «جمل الماضي» .

وعلى الرغم من قصر نظر كولريدج في شأن الامتيازات الحقيقيّة تماماً لشعر القرن الثامن عشر، رأى شيئاً مهماً في ما يتّصل بعبويه . وعلى الرغم من أنه كان مكافحاً، لم يفلت، خلا في لحظات عابرة، من صيغته الإشاريّة أساساً . كان مثل التمثال الفسار من الرخام . وعند كوبر كان هناك تقريباً - المتعالي، عالم الطبيعة، الشخصيّ جداً - مؤثراً تقريباً . وعند وردزورث سيكون قد انصبّ في تلك «الوحدة الوجوديّة التي تُرى فيها كلّ التمييزات المألوفة - الموضوعي والذاتي، الإنسان والطبيعة، العقل والشعور، المدرك وغير المدرك» - بوصفها «مظاهر أو أشكالاً للكلّ فحسب»⁽¹⁴⁾ .

وهناك لبسٌ شديد في آية صلة بين ابن وأب في عالم الشعر . ولم يكن كولريدج دائماً، أو تماماً، جاهلاً جماليّات شعراء القرن الثامن عشر . فهناك لحظات يكون فيها قادراً على الالتفات إليهم بشيء من الحبّ، على الرغم من اختلافاتهم عنه . وفي رسالة رائعة إلى صديقه (جون ثلّول) في السابع عشر من كانون الأوّل، عام 1796 - وهي لا تفيد لكتّنها تعيد إلى الأذهان مرّة أخرى رأي (إليوت) في أنّ شعراء القرن الثامن عشر «فكّروا وشعروا، دونما اتصال بين الفكر والشعور ودونما توازن» - يوحى كولريدج بأنه كان يكتب ضرباً من الشعر مختلفاً عن أسلافه المباشرين . «أشعر بقوة، وأفكر بقوة، لكنني نادراً ما أشعر من دون تفكير، أو أفكر من دون شعور. . . وآرائني الفلسفيّة مزوجة بمشاعري، أو يُستدلّ عليها بها: وأحسب أنّ هذا ما يميّز أسلوبني في الكتابة . وهو، على غرار

(*) Statuesque : تعني شيئاً شبيهاً بالتمثال من حيث الجلال أو الجمال الكلاسيكي .

(14) و. جكسون . بيت: يُقلّ الماضي والشاعر الإنكليزي - The Burden of the Past and English poet (كيمبردج، ماساشوسيتس، 1970)، ص 125 .

أي شيء آخر، يكون أحياناً جالاً، وأحياناً قبحاً». حتى إن هذه الفكرة عن شعر جديد ومختلف تظلّ تفسح له المجال (على الأقلّ للحظة) لأن يُعجّب بما أحسّ أنه كان جماليّات مختلفة تماماً لشعراء سبقوه، إذ يواصل القول: «ولكن لا تدعنا نطبّق قانون الاتّساق Uniformity على الشعراء - لديّ مجال كافٍ في دماغي للإعجاب دائماً وبالتساوي تقريباً، بعقل (أكينسايد) ووهمه، بقلب (بولز) ووهمه، وبالسيادة المهيبة (ملتون)، والحديث الودّي الإلهي (لكوبر)⁽¹⁵⁾. والإثارة في شعر اللقاء لم تفقده تماماً تذوّقه للجماليّات المحدّدة في شعر الإشارة.

(15) رسائل مجموعة Collected Letters، 1، 279.

الفصل الثالث

شِعْرُ اللَّقَاءِ : ورد زورث

إنَّ ما يظَلَّ يُنْظَرُ إليه عموماً بوصفه البيان الرسمي لـ «الشعر الجديد» - مقدمة وردزورث للطبعة الثانية للقصائد الغنائية سنة 1800 م - لا يكاد يمسَّ صميم القضية. وطبيعي أنه بيان رسمي: على الرَّغم من إنكاره المتكرّر لأن يكون مطلوباً من القارئ أن يعتنق أصدقاء جديدين «في حال تخلّيه عن أصدقائه القدامى فحسب»⁽¹⁾، وواضح أنه يتحدّى شعراء الأسلوب القديم. وتحمل صحيفة العنوان في المجلّد الثاني الجديد لسنة 1800 م شعار: «Quam nihil ad genium, Papiniane, tuum!» - الذي يمكن أن يترجم بتصرّف على هذا النحو: «يا مريد بوب، لن يكون هذا مما يروقك!».

وتظَلّ المقدمة الشهيرة، من نواحٍ عدّة، مهمّة وموحية، لكنّها على الرَّغم من ذلك كثيراً ما تضلّل؛ لأنها، عقب المقاطع الافتتاحيّة القليلة، تغدو منشغلة بالموضوعات («أحداث الحياة العاديّة») وبالأسلوب (لغة «الحياة الوضيعة والبسيطة»)⁽²⁾. ولن يكون هناك «تشخيصات للأفكار المجرّدة في هذه المجلّدات

(1) وليم وردزورث وصموئيل تايلور كولريدج: القصائد الغنائية Lyrical Ballads: نصّ طبعة 1798 م مع القصائد الإضافيّة لسنة 1800 والمقدمات، نشره ر.ل. بريت و.ا.ر. جونز، (لندن، 1963)، ص 271.
(2) المرجع نفسه، ص ص 244-245.

(ص 250)، وسيستخدم الشاعر «لغة الناس نفسها»، (ص 250)؛ وستكون ثمة «أشارة مما يسمّى عادةً أسلوب الشعر» (ص 251). وفوق هذا، سيري في هذه القصائد أنّ ليس ثمة «اختلاف جوهري بين لغة النثر والتأليف الموزون» (ص 253)، وأنّ الوزن، إلى ذلك، سيساعد في «تعديل العاطفة وتقييدها من خلال مزج للشعور المألوف» (ص 264).

لكنّ هذا كلّه ليس هو ما يدور «الشعر الجديد» لدى وردزورث حوله بعمق، والعنصر الحاسم ليس مجرد اختلاف في التقنية، على الرّغم من أهميّة هذا العنصر، بل هو تغيّر في الرؤية. ونقطة الاختلاف لا يُشار إليها كثيراً بما يقوله وردزورث عن الأسلوب، مثلما يُشار إليها بالأسباب التي يقدّمها لموضوعاته وتقنياته المبتكرة. وليس المهمّ استخدامه «حياة وضيعة وبسيطة»، بل هو أنّه يفعل ذلك «لأنّه في ذلك الوضع تدمج عواطف الناس في الأشكال الجميلة والخالدة للطبيعة» (ص 245): وليس أنّه يختار الموضوعات التي تظهر «أحاسيس أخلاقيّة» معروفة لدى الناس - وهو ما يذكّرنا بقصائد من مثل «الصبي الأخرق The Idiot Boy»، و«نحن سبعة We are Seven»، و«سيمسون لي Simon Lee» و«سوزان البائسة Poor Susan» - بل إنّ «الشعور الموسّع في ذلك يعطي أهميّة للفعل والحال وليس الفعل والحال للشعور» (ص 248)؛ وليس عزمه الثابت على تنقية الأسلوب الشعري، وإنّما تحقيقه للرباط القويّ الموجود بين الإنسان والعالم من حوله - «انطباعه العميق عن بعض الخاصيّات المتأصّلة والثابتة للعقل البشري، وكذا عن بعض القوى في الأشياء الكبيرة والخالدة التي تعمل فيه، التي هي أيضاً متأصّلة وثابتة» (ص 249-250). ولعلّ ما هو أكثر أهميّة من ثورة وردزورث في التقنية الشعرية، ثورته في الرؤية الشعرية - رؤية العلاقات المتبادلة والعميقة والمتأصّلة بين الفكر والشعور، وبين العقل والطبيعة، وبين الطبيعة والمتعالى.

وابتغاء مشاهدة هذه الثورة في الرؤية الشعرية علينا، في آية حال، أن نعود إلى شعر وردزورث. ولكي نصوغ نظريّة عنه علينا أن نعود إلى كولريديج.

وكولريديج هو الذي اهتمّ بنظرية هذا الشعر الجديد، أو، يمكن القول، متضمنات هذا الشعر الجديد. ومن غير المفيد أن ننظر إلى مقدّمة وردزورث على أكثر من ضوء متقطع؛ لأنه هو نفسه قال، في سنوات تالية، إنه «لم يبال أدنى مبالاة بالنظرية، وقد كتبت المقدّمة استجابة لسؤال السيد كولريديج بدافع طبيعة جيّدة فحسب»⁽³⁾.

وليس الأمر أن المقدّمة قد كتبت «استجابة لسؤال السيد كولريديج» فحسب، بل الواضح أنها تمثل تفكير كولريديج، على أقل تقدير، بقدر تمثيلها تفكير وردزورث. ولم يكن كولريديج منغمساً في مدح الذات حين كتب إلى روبرت سودي سنة 1802 إن المقدّمة «طفل نصفيّ لدماعي أنا، ومن ثم نشأت عن المناقشات التي تكرّرت كثيراً، بحيث إنّ أيّاً منا، مع استثناءات قليلة، قلما يكون في مقدوره أن يقول جازماً أننا بدأ أولاً بأية فكرة خاصة». لكنّ الفكرة الرئيسة في ملاحظات كولريديج لسودي أنه «بعيد عن المضيّ مع وردزورث إلى آخر المطاف»، وأنه، على النقيض من ذلك، يخامره شعور بأنه «في موضع أو آخر ثمة اختلاف جذريّ في آرائنا النظرية حول الشعر»⁽⁴⁾. وخلافاً لكثير من وعود كولريديج، فإنّ قراره الذي يقول فيه «هذا سأحاول أن أذهب إلى صميمه» كان مقرّراً أن ينفذ، ولو جزئياً على الأقل. وأنه حتى سنة 1815 م - ويمكن أن يقال إنه حتى آنذاك لم يبلغ «صميم» المسألة - إلّا أنّ المجلّد الثاني من «السيرة الأدبية» يقطع شوطاً طويلاً في طريق تنفيذ ذلك الوعد.

وعند نقاد كثيرين، تعدّ الفصول الخمسة عن وردزورث (الرابع عشر، والسابع عشر - العشرون، والثاني والعشرون) جوهر السيرة الأدبية. وقد يكون هذا هرطقة عند أولئك الذين يأخذون فكرة أكثر عضوية عن «السيرة»، ومن هم يشعرون، لذلك، بأنّ هذه الفصول يمكن أن تقلّد حق قدرها فقط في

(3) ملحق التاييمز الأدبي، (لندن)، 28 نيسان، 1950، ص 261؛ اقتبسه بول م. زول، من

«النقد الأدبي عند وليم وردزورث»، (لنكولن، نبراسكا، 1966)، ص 15.

(4) الرسائل المجموعة، 2، 830.

سياق المناقشة الكاملة عند كولريديج - ولكن ثمة شكاً ضئيلاً في أنّ الفصول التي موضوعها وردزورث، هي أمثلة للنقد التطبيقي عند كولريديج في أحسن أحواله. وثمة شيء آخر، وهو أنه ههنا يمكن أن تناقش مسألة وجود الفكرة الأوضح لنظريته الشعرية أيضاً، مضمّنة في أحكامه على الشاعر الأعظم لعصره. ونستطيع أن نرى ههنا - على الأقلّ بوضوح أكثر مما في مقدّمة وردزورث - كولريديج لـ «القصائد الغنائية - ما ميّز أساساً الشعر الجديد، مشاهداً في عمل أعظم ناظميه. ولقد كان لدى كولريديج خمس عشرة سنة من التأمل في دلالة ظاهرة وردزورث، وقد أعطاه تعاقب الزمن بُعْداً لروية ماهية نقطة الخلاف بعمق أكبر.

يبدأ كولريديج (في الفصل الرابع عشر) بتقسيم العمل بينه وبين وردزورث في «القصائد الغنائية»: فتكون له قصائد ما فوق الطبيعة supernatural، وتكون لوردزورث معالجة موضوعات «مختارة من الحياة العادية». ويقدم، من ثم، رؤية تمهيدية لفكرته عن القصيدة والشعر - حيث تقود الأولى إلى مناقشة موجزة للطبيعة العضوية للقصيدة («التي يدعم كلّ جزء من أجزائها، على نحو تبادلي، الجزء الآخر، ويفسّره»، والتي تتحرّك «كحركة الأفعى»⁽⁵⁾، وتفضي الثانية إلى الوصف الكلاسيكي لـ «الشاعر، الموصوف بالكمال المثالي»، الذي كنّا قد أشرنا إليه قبل (2، 12). وعلى الرّغم من ذلك، فما هذا إلّا مدخل إلى التحليل الطويل لشعر وردزورث في الفصول اللاحقة (الفصول 17-20، 22). وهناك سترسم الحدود؛ إذ «سيوضح نهائياً النقاط التي أوافق فيها آراءه، والنقاط التي أخالفه فيها تماماً» (2، 8).

وتبدو الاختلافات في التحليل النهائي سطحية نسبياً. والحق أنّ كولريديج يفضّل القول نسبياً (الفصول 17-20) في شأن اختلافاته مع وردزورث على اختيار «موضوعات وضعية وهيئة»، وعلى مسألة اختلاف جوهرى بين «لغة النثر والتأليف الموزون» - ويقدم، أثناء العمل، بعضاً من نقده الأكثر حدّة. ويواصل

(5) السيرة الأدبية، 2، 11-10.

كولريديج (في الفصل الثاني والعشرين) تلخيص ما يعدّه «نقائص مميّزة» لشعر وردزورث. وليست الاختلافات بينهما هي المهمّة عندنا هنا، بل المهمّ حقيقة أنّه في بقيّة الفصل الثاني والعشرين (2، 115-129) - التي يناقش فيها كولريديج «الامتيازات المميّزة لشعر وردزورث - يكون قادراً على تفصيل ما هو جديد ومثير في هذا الضرب الجديد من الشعر.

وحقّ ههنا يمكن أن يبدو كولريديج، أولاً، متابعاً وردزورث في تشديده على الأسلوب، لأنّ أوّل «الامتيازات» الستّة التي يميّزها هو «نقاء صاوم للغة نحوياً ومنطقيّاً؛ وباختصار، تخصيص تامّ للكلمات بالمعنى» (2، 115). لكنّه يصير واضحاً حالاً أنّ كولريديج لديه معنى ما أبعد غوراً في العقل: «ليكن ملاحظاً، على آية حال، أنّي لا أضمنّ في معنى الكلمة موضوعها المطابق فحسب، وإنّما أيضاً كلّ المعاني الذهنيّة التي تستدعيها. لأنّ اللغة ليست مصوغة لنقل الشيء وحده، بل مصوغة أيضاً لنقل شخصية الإنسان الذي يمثّلها ومزاجه ومقاصده» (المجلد 2، ص ص 115-116). وجليّ أنّ إحدى مناقب وردزورث إنّما هي جمعه في قصيدته بين نفسه وبين العالم الذي يكتب عنه.

ويقال إنّ فضيلة وردزورث الثانية هي «أهميّة وسلامة متماثلتان للأفكار والعواطف، مُستفادتان - ليس من الكتب، وإنّما - من الملاحظة المتأملّة للشاعر» (2، 18). ويمكن القول ثانية إنّ تعليل هذا هو الأكثر أهميّة. وأفكار وردزورث وعواطفه لها «أهميّة وسلامة متماثلتان» - وهو ما يعني لي أخيراً شيئاً من قبيل «التمام wholeness» - لأنّها تُمتح من الأعماق التي يُختار نفر قليل في كلّ عصر لارتياها، والتي قليلون في كلّ عصر من لديهم الشجاعة أو الميل للمنزول إليها» (2، 120). ولشعره «أهميّة» و«سلامة» لأنّ الينايع الأعمق التي فجّرها هي تلك التي داخل نفسه - وهذه ينايع ليس من السهل أن تفتح، وليس من السهل أن توجّه في قناة إلى الآخرين. وافتتاحها بعمق يقتضي صيغة جديدة للإدراك؛ وتوجيهها في قناة إلى الآخرين يستلزم ضرباً جديداً من الشعر. ويتابع كولريديج قائلاً: «إنّ قصيدة أغنية الخلود العظيمة Immortality Ode قصد بها

فقط قرّاء قد تعودوا أن يراقبوا التدفق المستمر لطبائعهم الأعمق، ويغامروا أحياناً في محالّك فجر الوعي، ويشعروا بفائدة عميقة في أشكال من الوجود الأعمق، الذي يعرفون أنّ صفات الزمان والمكان لا تنطبق عليه، وهي غريبة عنه؛ لكنّه، على الرّغم من ذلك، لا يمكن أن يُنقل إلّا برموز الزمان والمكان» (2، 120). لم تعد أسرار الشعر الأولى تلك الأسرار الخارجيّة للبحر والجبل أو، حتى، الله - وهي أسرار يمكن أن تبعد وتجعل سهلة القياد - وإنّما الأسرار الداخليّة للنفس.

وفضيلة وردزورث التّالية، التي يشير إليها كولريدج بمجرّد إشارة عابرة تقريباً، هي بوضوح مسألة الأسلوب: «القوّة والأصالة في أبيات ومقاطع مفردة: الأناقات المغريّة المتكرّرة التي امتاز بها أسلوبه» (2، 121).

وتدخلنا الفضيلة الرابعة بعمق أكبر إلى وردزورث: «الحقيقة الكاملة للطبيعة في صوره وأوصافه مستمدّة مباشرة من الطبيعة» (2، 121). ويمثّل كولريدج بأنّاقة لما يقصد إليه: المشهد المنزلق من «المقدّمة» فيه «الأشجار الجرد وكلّ صخرة جليديّة / رنّ كالخديد»؛ طائر التفّاحي الأخضر، «جثم في نشوة» على «أجمة من أشجار البندق قائمة هناك / تتحرّك برشاقة بتأثير النسيم الهابّ». ويقول كولريدج معلقاً: «على غرار الندى أو اللمعان فوق حصاة، لا تشوّه العبقرية ولا تحيل ألوان أشيائها؛ بل إنّها، على العكس، تظهر لا محالة مسحة وأنّراً، بمنعان العين من الملاحظة العاديّة» (2، 121). ويأتي، ثانية، السبب: ما ذلك الذي يجعل ممكناً «مثل هذه الحقيقة الكاملة للطبيعة»؟ - إنّها «ألفة طويلة ولطيفة للروح الذي يعطي التعبير المتميّز لسائر أعمال الطبيعة» (2، 121). وجليّ أنّنا عائدون إلى ما سمّاه كولريدج «الحياة الواحدة في داخلنا وفي العالم».

ربما سيكون واضحاً الآن أنّ حركة تحليل كولريدج امتيازات وردزورث ليست انتقالاً من فضيلة مستقلّة إلى أخرى، بل هي تقدّم أعمق فأعمق نحو مركز الرؤية الشعريّة لوردزورث. وحركة الفكر هي نفسها تقريباً حركة شعريّة - وحتى حركة رمزيّة - لا تدع شيئاً وراءها، بل تأخذ كلّ شيء معها مضاعفةً

بسرعة ازدياد المعنى . والفضيلة الخامسة لشعر وردزورث تجعل هذا واضحاً تماماً، لأنها ترفع إليها كل شيء ذي أهمية مما أُشير إليه قبلُ، وتمضي إلى ما بعده . المميّزة الخامسة هي «مثير عطف تأملي a meditative pathos ، اتحاد لفكر عميق ورقيق بالحساسية؛ تعاطف مع الإنسان بوصفه إنساناً؛ والحقّ أنّه تعاطف متأمل، وليس مجرد رفيق معاناة أو صاحب، (مشاهد، يشترك) بل متأمل، لا اختلاف في الدرجة في منظوره، يخفي تمائل الطبيعة؛ لا أضرار الريح أو الطقس، أو التعب، وحتى الجهل، تحجب تماماً إلهي الوجه الإنساني. ويظلّ عنوان الخلاق وصورته ممكّني القراءة عنده تحت الخطوط القائمة، التي بها شطبيها الإثم أو الكارثة، أو غطيّاهما. وههنا يتلاشى الإنسان والشاعر ويجد كلّ منهما نفسه في الآخر، الأول بوصفه مبجلًا، والثاني بوصفه مُقاماً عليه البرهان (2)، (123-122). ومع كلّ ذلك الذي قد تقدّم، هناك الآن إحساس بالحقيقة المتعالية وراء، وعلى الرّغم من ذلك، ليس وراء، «إلهي الوجه الإنساني».

وثمة، أخيراً، الادّعاء المنتصر بامتلاك وردزورث القوّة الغلابيّة التي تعطيه إذناً بالدخول إلى البقيّة كلّها: «وأخيراً، أدعي أنّ لهذا الشاعر، وبتفوّق، موهبة الخيال في أسْمى معنى للكلمة وأدقّ معنى لها» (2، 124). وواضح من الأمثلة التي يقدّمها كولريدج - بما فيها مقاطع من «أشجار الطقوس Yew Trees» و«التصميم والاستقلال Resolution and Independence» و«أغنية الخلود Immortality Ode» - أنّنا معادون ثنائية إلى «الشاعر، الموصوف بالكمال المثالي»، الشاعر من حيث هو النقطة المركزيّة للوحدة الشعريّة. و«النفس الإنسانيّة الكاملة» تدخل إلى حيّز العمل، «بإخضاع ملكاتها الواحدة منها للآخرى»، وبذلك تتأقّ «نبرة وروح للوحدة التي تمزج، وتصهر (إنّ جاز التعبير) الأشياء أحدها في الآخر». وهي وحدة مكافئة لـ، وحتى تستدعي، «توازن الخاصيّات المتضادّة أو المتنافرة أو ائتلافها»: التماثل والتباين؛ العام والمحدّد؛ الفكرة والصورة؛ الفردي والأنموذجي؛ الجذّة والابتذال؛ الانفعال والنظام؛ المحاكمة العقليّة والشعور؛ الطبيعي والصناعي؛ الشاعر وقصيدته - وفي هذا كلّهُ - ومن ثمّ لدى وردزورث الذي هو شاعر الخيال بجدارة - يكون

الخيال هو «الروح الذي يحلّ في كلّ مكان، وفي كلّ شيء، ويصوغ الجميع في كلّ واحد جميل وذكيّ» (2، 12-13).

والحقّ أنّ لدى كولريديج ووردزورث رؤية شعرية جديدة - رؤية ذات دلالة ثنائية: الرؤية التي منها تأتي القصيدة إلى الوجود، ورؤية العملية الشعرية نفسها - ممثلة الاستطاعة الإدراكية والوجودية التي يتمتّع بها الخيال. وأنها، في الدالّتين كليهما، الرؤية التي لا يبدو أنّ شيئاً يفلت من قبضتها: الشاعر، وأفكاره ومشاعره، عالم البشر وعالم الطبيعة، عالم القيم الشاملة - كلّ ما يمكن أن يعرفه الإنسان. وهي، بعد كلّ شيء، الرؤية التي تستدعي دمج هذه الأشياء جميعاً، تستدعي تحويلاً - أو، بدقّة أكثر لدى اللاهوتي مثلاً هو لدى كولريديج، اتحاداً في وجود جديد. ويمكننا أن نسمّي هذا الوجود الجديد، كما يفعل كولريديج، رمزاً، كينونة شعرية تظلّ من صميم جوهر حقائق كثيرة هي الموجهة لها. ونحن في عالم من الشعر الجديد.

ربما نبدأ بقصيدتين لوردزورث ليستا متباعدتين كثيراً في العهد، لكنهما متباعدتان جدّاً في التقنية والرؤية الشعريتين. أما الأولى، وهي «أبيات مدوّنة على مقعد في شجرة طقوس - Lines Left Upon a seat in a yew Tree»، فقد أكملت سنة 1795 م؛ وأما الثانية، وهي «شطر من ليلة A Night Piece»، فقد نُظمت سنة 1798 م. وليس من قبيل النزوة أن نجد وردزورث - في ترتيبه النهائي لقصائده، هذا الترتيب المتباين والمتقلب أو الاعتباطي غالباً خلا هذه المرة - يصنّف أولى هاتين القصيدتين مع مجموعته «قصائد كُتبت في الشباب»، ويصنّف الثانية مع «قصائد الخيال». وعلى الرّغم من أنّها متباعدة زمانياً بمقدار ثلاث سنوات فحسب، فإنّها عوالم متباينة في نواحٍ أخرى. وقد يناقش المرء مبعث هذا - ومن المؤكّد أن السنة الجديدة بالإعجاب annus mirabilis لدى كولريديج ستكون عاملاً حاسماً - لكنّ حقيقة الاختلاف جليّة. وقصيدة «أبيات مدوّنة على مقعد في شجرة طقوس»، هي قصيدة من عصر آخر، العصر الذي انقضى لتوّه. وعلى الرّغم من الاختلافات في بنية الشكل، فإنّ لها صلة

لافتة للنظر بـ «مرثاة» غراي . وههنا مرّة أخرى يكون الشاعر دليل القارئ الذي يمكن أن يلازمه، مستوقفاً إتياء لحظة في مكان مقدّس، ليرتاح ويتأمل : «لا، أيّها المسافر، استرح». ويركّز المشهد مرّة أخرى، وهو أقلّ تفاصيل لكنّه ليس أقلّ حيويّة :

شجرة الطقسوس المنعزلة هذه تقف
بعيداً عن كلّ منزل للإنسان : فماذا لو أنّه ليس ههنا
جدول متألّى يتخلّل المرج الأخضر؟
ماذا لو أنّ النحلة لا تحبّ هذه الأغصان الجرد؟
ورغم ذلك، فإنه إذا ما هبت الريح برقة، فإنّ الأمواج المتجمّعة،
التي تنكسر على الشاطئ، ستهدّد عقلك
باندفاع ناعمة لا يقربها التلاشي⁽⁶⁾.

وتضاف إلى هذا تفاصيل عن «المرج المطحلب»، «هذه الشجرة المعمّرة» تعلّمت «بأذرعتها السّمر أن تشكّل تعريشة دائرية»، «خروفاً شاردأ»، الـ «طيطوى». وهناك أيضاً - على غرار رائعة غراي «Youth to Fortune and to Fame Unrnown» - الـ «الشباب الذي يحضنه العلم Youth by science nursed»، «وجود محبّب، لا يعرف الرغبة / آية عبقرية لم تبجل». وشابّ غراي لم يقدم إلى العالم، ومن هنا لم يحقق شهرته المستحقة؛ أما شباب وردزورث فقد كان باختصار مطلق السّراح على العالم، لكن عبقريته مضت غير معترف بها، ومن ثم أوى، بكبرياء جريح، إلى معتزل شجرة الطقسوس. وفي سائر الأحوال يكون الرمز الرئيس درساً مستهدفاً للقارئ - الغريب العابر، مثلنا نحن - وهو عند غراي درس استسلام، وعند وردزورث درس ضعة:

أيها الغريب! كن حذراً من الآن فصاعداً؛ واعلم أنّ التكبر،
مهما تقنّع بأردية جلاله،
ضعةٌ وصغارٌ.

(6) اقتباسات من شعر وردزورث، عدا المقدمة The Prelude، ستؤخذ من نصّ مؤلّف أكسفورد الموثّق، وردزورث: الأعمال الشعرية Poetical Works، نشره توماس هتشنسون، التي نقيحها إرنست دي ميلنكورت (لندن، 1950).

وبين أننا ما نزال إزاء شعر الإشارة. والشاعر يتأمل مشهداً رائعاً في جمعه بين الجمال والكآبة. وهو المشهد الذي يستطيع أن يكرسه للإفادة، على غرار ما يفعل غراي في باحة الكنيسة الجميلة والكثيبة في ستوك بوجز Stoke Poges. ويشير الشاعر، بحرارة غالباً، إلى ما هو مهمّ لدرسه:

وعلى هذا الصخور القاحلة، التي تنائر فوقها السرخس والخلنج،
والعرعر والشوك
يُثبت عينه المكتبة، لساعات كثيرة
تغذى بمتعة سقيمة، مفتشاً ههنا عن
رمز لحياته القاحلة.

وإن كلمة رمز emblem مناسبة لهذا الضرب من الشعر نفسه. الرمز قد يكون الضرب الأكثر حكمة واعتدالاً من المجاز، ملتزماً بعداً متسماً بالاحترام عن المشار إليه. وكذا الشاعر. وليست هي تجربته، ولا نحن مشجّعون حقيقة على الاعتقاد بأنها كذلك. ويظلّ هو المؤثر، المعلم، الذي يقول: «انظر إلى هذا وتعلّم منه».

وفي سنة 1798، أي بعد ثلاث سنوات فقط، تحوّل كولريدج إلى عالم شعري آخر، جديد في العبارة الشعرية، جديد في اللغة المجازية، جديد في الرؤية. وقصيدته القصيرة «A Night Piece» مثال رائع.

السّماء ملبّدة
بغيوم ملتحمة، محكمة الحبيك،
كثيفة وشاحبة، وقد أضاءها كلّها القمر
الذي بدا، عبر هذا الحجاب، غير واضح،
قرصاً باهتاً منعقداً ينبعث منه ضياء ضئيل
ينتشر بفتور شديد فلا يقع ظلّ،
يرسم على الأرض - من صخرة، أو نبتة، أو شجرة، أو قمة.
وأخيراً فإنّ إيماضة سريعة مبهجة
تروع المسافر المستغرق في تفكير حالم وهو ينقل الخطو
على طريقه المهجور، وبعين لامبالية

انحنى الى الأرض؛ يرفع بصره - لقد مزّقت الغيوم
إرباً -، وفوق رأسه تراءى له
القمر اللألاء، وتألق السماء.
وهناك في القبة الزرقاء الداكنة يحجر قدماً،
يتلوه حشد من نجوم، صغيرة
حاذة، وساطعة، وعلى طول اللجة القائمة
تندفع بسرعة مثلما يندفع هو: فما أسرع دورتها،
لكنها لا تتلاشى! - الريح في الأشجار،
ولكنها صامتة؛ ويظلّ موكب الكواكب يلفّ
متناثراً بما لا يقاس من المسافات؛ والقبة الزرقاء،
التي أعطتها تلك السحب البيض شكلاً دائرياً، السحب الهائلة،
ما تزال تبعد غورها الذي لا يسبر.
وأخيراً تضيق الرؤية، والعقل،
الذي لم يعكر صفوه ما يأنسه من نشوة،
والذي يركن تدريجياً إلى سكون وادع،
يُسَلِّم إلى التأمل في المشهد المهيّب.

ويأتي التركيز التام للقصيدة تقريباً - وهو يبدو كذلك لأول وهلة على الأقل -
على السماء. فهي سماء باهتة اللون، شاحبة بفعل الضوء الضعيف لقمر
محجوب بالغيوم، ضعيف حتى إنه لا يلقي ظلّاً على الأرض. أما الإشارة
الوحيدة إلى الأرض أسفل منه، عدا الإلماحة الخاطفة إلى «المسافر المستغرق في
تفكير حالم، المقيد إلى الأرض»، فتتم بإجراء غير مباشر: لا ظلال تقسم
الأرض أرباعاً - «من صخرة، أو نبتة، أو شجرة، أو قمة». والحركة السائدة في
القصيدة هي حركة الغيوم: هي، أولاً، «محكمة الحبك»؛ ثم هي «تمزّق
إرباً»، مجلّية رؤية القمر و«تألق السماء»؛ وهي تعمل بوصفها إطاراً لـ «القبة
الزرقاء الداكنة» للسماء، «التي جعلتها تلك الغيوم البيض، الغيوم الهائلة،
دائرية»؛ وهي، أخيراً، وهذا يوحى به إيجاء، تلتحم ثانية كما «تلتحم الرؤية».
وبهذا القدر من الأهمية، أيضاً، تفاعل النور والظلام. فثمة أولاً نور القمر

المحجوب، «دائرة باهتة منعقدة». ويأذن هذا لـ «إمضاة سريعة مبهجة» تسترعي اهتمام «العين الكليّة» للمسافر. ويؤول به هذا إلى رفع بصره لـ «رؤية» «ألق السماء» الذي هو نفسه مؤلف من النور والظلام. وههنا النور والظلام هما الحدّان الأقصيان للنور والظلام: الظلام «قبة زرقاء داكنة» مرعبة؛ إذ هي «لجة مظلمة»؛ والنور هو النور «الحادّ» و«الساطع» لـ «حشد من الكواكب». وثمة ههنا أيضاً حركة، «الحركة الصامتة للكواكب»، «متناثية بما لا يقاس» في الـ «غور الذي لا يسبر» للعبة الزرقاء الداكنة.

وليست هذه فحسب العلاقات المتبادلة في القصيدة. فالغيوم والنور والظلام هي أيضاً بقصد على علاقة بالعالم الذي هو تحتها - صخرة، نبات، شجرة، قمة، وأكثر من ذلك كلّهُ بالمسافر. وحين تتوضّح القصيدة تدريجياً نغدو شيئاً فشيئاً مدركين أن المسافر نفسه ربما يكون، في الواقع، مركز القصيدة. وقبل أن يظهر (في البيت التاسع) ما كنا مدركين أي مظهر شخصي من المشهد خلا أنفسنا. وقد أدخلنا إلى المشهد مباشرة، وكأنه ملكٌ لنا. وحين يظهر المسافر، وينبّه إلى المشهد فوقه، يغدو الأمر كأننا حاضرون في ذلك الوقت وأنه قد انضم إلينا. لسنا بعيدين عنه؛ إننا نشاركه تجربته، كما يشاركنا هو. وهذه حقاً إحدى أهم مآثر القصيدة: حتى رغم أنه ليس ثمة ذكر لشخص أول يشجعنا على «الادّعاء» بأننا نحن الشاعر، نشعر - وذلك يتنامى بتجليّ القصيدة - بأننا نجرب الأحاسيس نفسها التي عاناها المسافر. فنحن داخل التجربة.

ولكن ما التجربة التي نتحرك فيها؟ - قد يكون المرء مغرى بالقول إنها انتقال من الظلمة إلى النور. ولكن لا. إنها، على الأصحّ، انتقال من الغموض إلى الوضوح - من النور الضعيف للقمر المحجوب إلى الانشعاب الثنائي الحاد إلى النور والظلام - وفي الوقت نفسه انتقال من اللامبالاة («العين اللامبالية») إلى الرؤية.

زد على ذلك أن المرء، في قصيدة توشي على الأقلّ بقدر ما تقول، يجد نفسه موجهاً إلى السؤال عما إن كان لا يزال ثمة حركة أخرى. أليس ثمة رحلة

تدريجية نحو الداخل؟ - حين تضيق الرؤية لا تكون السماء وحدها ما يهدأ، فإن بهجة العقل هي التي «تركن تدريجياً إلى سكون وادع». العقل هو الذي قد جَرَّب الرؤية - رؤية الوضوح الحادّ للظلام والنور، المرتبطين سرمدياً في انفساح للإغماض، لا يقاس، ولا يسبر غوره. فلا غرابة في أن يكون هناك غموض في الاستجابة لهذا الإغماض؛ لا غرابة في أن العقل «لا يعكّر صفوه النشوة التي يحسّها». فهو العقل الذي جَرَّب هذه اللحظة من الإغماض. ونحن، الذين قد شاركنا في هذه التجربة، وجدنا أنفسنا موجّهين أيضاً نحو الداخل بقوة. وحين نترك أخيراً داخل العقل - لـ «نتأمل المشهد المهيّب» - لا نكون متأكدين تماماً من أننا كنا في أي وقت خارجه. هل «الرؤية» خارج الشيء، أو أنها ضمن الشيء: رؤية في السماء أو رؤية في متاهات العقل البشري، أو على نحو ما في الاثنتين معاً؟ هل تصير الغيوم والنور واللجة القائمة - مع كونها غيوماً ونوراً وليلاً دامساً - شيئاً غير أنفسنا؟ وبمعنى من المعاني، يكون كل شيء قد ربط بصلة ما بالأشياء الأخر جميعاً: الغيوم والقمر ربطت بالأشياء غير الحية والحية على وجه الأرض؛ الغيوم وضياء الكواكب ربطت بالقبة الزرقاء القائمة لليل؛ والرياح والنجوم في حركة متناغمة كلّ منها مع الآخر وعلى قدر ما تربط أجزاء من التجربة بعلاقة مع القبة السوداء فوق، نتحقّق من أن القبة السوداء فوق هي التي تحتويها جميعاً - القبة التي تستمرّ في «تعميق غورها الذي لا يسبر». لقد غدت هذه القبة السوداء العقل، الذي ينطوي على هذا الإغماض كلّ - عقل المسافر، عقل الشاعر، عقلنا نحن. والرؤية التي قد وجّهنا فيها هي رؤية للإغماض.

قد يكون ذلك بعضاً من سرّ هذا الشعر الجديد: فقد وجّهنا إلى رؤية الشعر للخفاء. والعنصران كلاهما حاسمان. وقد وجّهنا، قبل كلّ شيء، إلى رؤية الشاعر: وهو لذلك شعر اللقاء، حيث نواجه، حقّاً، الشاعر وعالم قصيدته. وقد أدخلنا في عملية تجربته، حيث نشارك في صميم إبرازها. وهي، ثانياً، رؤية للخفاء، والخفاء يمكن أن يعبر عنه على نحو أفضل بكثير - وإن عزّ التعبير التام - بوساطة الرمز، وليس بإيضاحات المجاز وحدها أيّاً كانت درجة تعقيدها. الرمز يدع الخفاء على ما هو عليه. زد على ذلك أن هذه العناصر حين تتخذ معاً

- اللقاء والخفاء - قد تدنينا من سرّ الشعر الجديد. ويمكن القول بتعبير أدق: لأنّ الرمز ليس قاسياً ولا حاداً ولا فاقعاً - لأنه يوحى، ويومئ، ويشير - ما نراه يجتذب الأشياء (بما فيها نحن، إن أذنا لأنفسنا أن نجتذب) إلى نفسه. فالرمز، إذا ما استخدمنا صورة مبسطة، كرة ثلجية تندحرج، مجمعة عليها كلّ شيء تصادفه. الرمز لا يدعنا نقف جانباً ونجبل الطرف فيه، نترك الأشياء تشير إلينا، بل يسحبنا إلى تجربته هو، التي هي في الوقت نفسه تجربة الشاعر وعالمه. وشعر الرمز هو لا محالة «شعر لقاء».

لقد أسلفنا القول، على نحو كاف غالباً، إنّ الرمز عند كولريديج نتاج الخيال «ملكة صنع الرمز». ولعلّه قد آن أن نتصدى إلى نتيجة طبيعية لهذه الحقيقة التي قد جاءت ضمناً في مناقشتنا منذ بعض الوقت. وأعني الصلة بين المجاز/ التمييز الرمزي وتمييز الوهم Fancy والخيال Imagination. وعلى الرغم من أن كولريديج لا يصرح في مكان بمثل هذا الوضوح - ولا شك في أنه سيكون من التهور أن يصنع تسوية مريحة بينهما - ثمة شك في أن هناك، دائماً وفي كل مكان، تطابقاً ضمناً بين هذين التمييزين.

الخيال الشعري يصهر الأشياء المتباينة في وحدة جديدة؛ «يفكّك»، ينشر، يبّد، ابتغاء أن يعيد الإيجاد»⁽⁷⁾. وثمرته الرمز، الذي يمتاز في المحلّ الأول، بالنسبة إلى الشاعر وإلى القارئ، بالوحدة التي يبرز تعقيدها تدريجياً؛ وخصيصة هذا الإدراك إحساس بالخفاء. و«الوهم»، خلافاً لهذا، ليس لديه مضادات آخر بتصرّف بها، بل أشياء ثابتة ومحددة» (المجلد 1، ص 202). وثمرته «مجاز صرف» يميّز على نحو أكثر مباشرة بثنائية الإشارة فيه أو تعددها، وبأن وحدته تعرض للإدراك عاجلاً أو آجلاً؛ والنتيجة شعر هو، أساساً، أكثر وضوحاً وتحديداً من أن يكون غامضاً. الخيال، بتعبير كولريديج، «يصهر» أما الوهم «فيجمع» فحسب.

(7) السيرة الأدبية Biographia Literaria، 1، 202.

ومع هذا الذي تقدم، علينا أيضاً أن نبادر إلى إنكار أية قطيعة كاملة بين الخيال والوهم. فليس لزاماً أن يكون التمييز فصلاً. وإذا ما كان واضحاً في فكر كولريدج كله أن الخيال والوهم مختلفان اختلاف الرمز والمجاز الصرف، ومختلفان في الوسائل نفسها، فإنه واضح أيضاً أنها غالباً ما يعملان معاً في القصيدة نفسها. ولا يُرى هذا واضحاً في أي مكان مثلما يرى في مقطع من «السيرة» ركّز فيه بقوة على الدفاع المستميت عن الاختلاف بين الملكتين. فحين اعترض وردزورث (في مقدمته سنة 1815) على تعريف كولريدج للوهم بأنه «قوة مجمعة ورابطة» - مصراً على أن «التجميع والربط، والاستثارة، والتوحيد، تنتمي أيضاً إلى الخيال مثلما تنتمي إلى الوهم» - أجاب كولريدج بحدة في «السيرة الأدبية»:

«وأجيب بأنه إذا ما كان السيد وردزورث يعني بقوة الاستحضار والتوحيد ما عنيته أنا بالقوة المجمعة والرابطة تماماً من دون زيادة، فلنني أصرّ على إنكار أنه ينتمي البتة إلى الخيال؛ وأجدي ميّالاً إلى الظنّ أنه قد أخطأ في إشراك الوهم مع الخيال في عمل للثاني وحده. ويمكن أن يعمل الإنسان بأداتين مختلفتين تماماً في وقت واحد؛ ولكلّ منهما نصيبها في العمل، لكنّ العمل الناتج عن كلّ منهما متميّز ومختلف» (المجلّد الأول، 194).

وبالنسبة إلى كولريدج ثمة قصائد كثيرة تظلّ شعراً للوهم وحده، لكنه ليس ثمة قصيدة - على الأقلّ في المطوّلات - تنتصر لفكرته عن القصيدة الخيالية، ولا تتضمّن في الوقت نفسه شعراً من شعر الوهم. «ينبغي أن تمتلك العبقرية الموهبة بوصفها مكتملاً لها ووسيلة من وسائلها، مثلما أن الخيال، على نحو مماثل، ينبغي أن يمتلك الوهم. ويمكن القول باختصار إنّ القوى العقلية العليا لا تستطيع أن تؤدّي عملها إلا من خلال طاقة موافقة من القوى الدنيا»⁽⁸⁾.

ولعلّ المثل الأكثر شهرة لإثبات كولريدج تعايش الوهم والخيال في قصيدة

(8) نماذج من حديث المائدة the Table Talk للراحل صموئيل تايلور كولريدج، في الأعمال الكاملة، 6، 481 (20 آب، 1833).

واحدة - ومبعث شهرته مناقشة 1.1. ريتشاردز هذا المثل مناقشة مستفيضة⁽⁹⁾ - يكون في تعليقات كولريديج على فينوس وأدونيس (Venus and Adonis) لشكسبير. وهو يقول: «لقد أثبتنا أن شكسبير امتلك الوهم، من حيث هو ملكة جميع الصور المختلفة أساساً بنقطة أو أكثر من الشبه المميز:

«والآن تتناوله برفق تام باليد،
سوسة محبوسة في سجن من الثلج،
أو العاج في قيد مرمرى؛
صديق ناصع البياض يعانق عدواً ناصع البياض»⁽¹⁰⁾

لكن ثمة دليلاً على وجود ملكة أخرى تؤدي عملها ههنا. وما إن نتابع حتى نجد دليلاً أكيداً في عقله على الخيال، أو القوة التي تُصنع بها صورة أو شعور من تعديل صور أو مشاعر أخرى كثيرة وبنوع من الصهر لدمج المتعدد في واحد - تلك القوة التي تظهر نفسها بعدُ بمثل هذه القدرة والطاقة في «الملك لير»، حيث الأسى العميق عند الوالد يشيع شعوراً من العقوق والقسوة في عناصر السماء نفسها⁽¹¹⁾. وينبغي أن يكون جلياً من الأمثلة التي قدّمها كولريديج الآن أنّ أحدها شعر مجاز ليس غير - صور «مجمعة» لكنها غير «مصهورة»، والثاني شعر رمز، لم تعد فيه قسوة عقوق البنت مختلفة عن العقوق الغامض للسماء، والحق أنها غير مختلفة عن كلّ العالم المجنون الذي يجد لير نفسه فيه. والمثال المشابه من فينوس وأدونيس - أعني مثال كولريديج على فعل الخيال في القصيدة - ينبغي الآن حقاً أن يرسخ هذا التأكيد لمسألة أن تميز كولريديج بين الوهم والخيال - الغاية المباشرة لمناقشته - يميّز ضمناً في الوقت نفسه شعر المجاز الصرف

(9) كولريديج في شأن الخيال Coleridge on Imagination (بلومتون، إنديانا، 1960)، الصفحات 76-84.

(10) النقد الشكسيري Shakespearean Criticism، نشر توماس مدلتون رايزور (لندن، 1960)، 1، 188؛ والفقرة المستشهد بها هي «فينوس وأدونيس» Venus and Adonis، 11، 364-361.

(11) النقد الشكسيري، 1، 188.

من ذلك الشعر الذي يتخطى المجاز ليغدو شعر رمز. وذلك هو «فرار أدونيس من الإلهة المتيمة في غسق الليل -

«انظرا كيف يهوي نجم ساطع من السماء سريعا،
فيتوارى في المساء عن عين فينوس؟»

أما الخاصية الرمزية فيوضحها تعليق كولريديج: «كثيرة هي الصور والمشاعر التي جُمعت هنا من دون عنت ومن دون نزاع - جمال أدونيس - سرعة طيرانه - التوق، ومع ذلك اليأس، لدى المحدثنة المتيمة - خاصية مثالية مبهمة خلعت على الجميع»⁽¹²⁾.

ولا مرأ في أن ههنا مجازاً - فأدونيس يشبه بنجم - لكن هذا عند كولريديج ليس «مجازاً صرفاً». ولا يمكن تحديد نقاط التشابه بوضوح، من مثل قيد المرمر وقيد الثلج. وعلى كولريديج أن يتلمس سبيله للتعبير عنها - أعني الجمال، والسرعة، والتوق - ويسلم أخيراً بعجزه عن الإحاطة بالخفاء المعبر عنه بالرمز. ينبغي أن يظل مبهماً مثل «خاصية مثالية مبهمة مسدلة على الجميع»، مثل قسوة العالم المظلم لدى لير. ينبغي أن يظل الرمز في خفاء.

ومن وجهة أخرى، يكون مهماً، رغم الاختلاف ورغم السبق المعطى للخيال وللرمز، أن نضع في الحسبان أن كولريديج لم يحط من قدر عمل الوهم. فثمة شعر جيد نظم تحت سلطان الوهم، على غرار ما يبدو من إعجاب كولريديج ببعض من أفاضل شعراء القرن الثامن عشر. فهناك شعر وهم أيضاً ينطوي على عناصر خيالية - على غرار ما اقترحنا، مثلاً، في عمل كولنز وكويسر. ومهما يكن، فإن الوهم في أحسن حالاته ملكة شعرية ذات شأن تعمل وفق مبادئ خاصة بها. ولها مجاها الذي تعمل فيه حتى في شعر الخيال. وليس هناك شاعر يعمل دائماً، أو تماماً، في أقصى قوة. وليس في مقدوره ولا في مقدور قرائه أن

(12) المرجع نفسه؛ والفقرة المستشهد بها هي «فينوس وأدونيس Venus and Adonis»، 11. 816-815.

يتصوّروا له ذلك دائماً. إنّ شعر الخيال - وحتى أفضل الشعر - مؤلف من الخيال والوهم، من الرمز والمجاز.

وحين نعود إلى وردزورث نجد هذا ينطبق عليه مثلما ينطبق على شكسبير. فشعره عملٌ لكلّ من الوهم والخيال، ولذلك فهو مؤلف من المجاز والرمز معاً. وفي اللحظة نفسها التي يدّعي فيها كولريديج امتلاك وردزورث موهبة الخيال «في أسمر معاني الكلمة وأدقّها» يدّعي له صراحة أيضاً امتلاك موهبة أدن من الوهم⁽¹³⁾. والوهم، كما أسلفنا، يعمل وفق مبادئ خاصة به، ويمقتضى عقل كولريديج يكون وردزورث أكثر نجاحاً في استخدامه للخيال منه في استخدامه للوهم. «وفي عمل الوهم، لا يكون وردزورث، حسبما آنس في نفسي، رشيقيّاً دائماً، ويكون أحياناً عريضاً. ويكون المظهر الخارجي أحياناً غريباً جداً، أو أنه يستدعي وجهة نظر خاصة جداً، أو كأنه يبدو نتيجة لبحث محدّد سلفاً، أكثر من أن يكون تقديماً عفويّاً»⁽¹⁴⁾. ويوحى هذا بأنّ نتاج الوهم ينبغي أن يكون رشيقيّاً، مع شيء من الإحساس بالعفوية إزاءه، وواضحاً نسبياً في إشاراته. أما عمل الخيال، وهذا يمكن أن يستخلص من أمثلة كولريديج في الفقرة التالية ومما يقوله في مكان آخر - فسيكون كثيفاً، وأكثر أهمية وإحاطة، وسيظلّ مجال إشارته غير محدّد جوهرياً، ومبهماً.

وأفترض أنه سيكون سهلاً، لكنه قلماً يكون مفيداً، أن نمثّل لشعر الوهم غير الناجح لدى وردزورث. وسيكون أدنى إلى صميم الموضوع أن نرى الخيال فعلاً بنجاح في قصيدة للخيال، ونرى كيف يعمل عمله داخل سياق المجموع. نبدأ قصيدة «التصميم والاستقلال Resolution and Independence» بتجاوز بسيط للصّور - وهي صور لم يقيّض لها أن تكون مجازات حتى الآن - المتناغمة مع بهجة الشاعر بالطبيعة.

(13) السيرة الأدبية Biographia Literaria، 2، 124.

(14) المرجع نفسه؛ أحرف ماثلة في الأصل.

كان هناك صفيير في الريح طوال الليل ؛
هطل المطر بقوة وحدثت الفيضانات ؛
أما الآن فإنَّ الشمس تبزغ هادئة ساطعة ؛
والعصافير تشدو في الغابات النائية ؛
وعلى صوته العذب تجثم اليامة بسكينة ؛
ويرجع الزرياب حين يزقزق العقعق ؛
والجو كله مفعم برققة الأمواه البهيجة .

وتمضي الآن «أنسنة» الطبيعة، الموحى بها إبحاء حتى الآن، على نحو أكثر وضوحاً :

كلّ الأشياء التي تحبّ الشمس هي خارج الأبواب ؛
السماء تفرح بمولد الصباح ؛
والعشب ساطع بقطرات المطر ؛ وفوق السباخ
تركض الأرنب الوحشية منطلقة في أقصى سرعة في مرحها ؛
وبأقدامها تثير من الأرض المرشوشة ،
سحابة رقيقة ، تتألق في الشمس ،
وتعدو معها طول الطريق ، حيثما تعدو .

وما إن تحدث هذه «الأنسنة» حتى نغدو مدركين أنّ الشاعر قد شرع ، آيأً كانت درجة إغفاله لذلك ، العمل على نحو مجازي : «فرح» السماء ؛ «مولد» الصبح ؛ «مرح» الأرنب الوحشية ؛ «عدو» السحابة الرقيقة بمصاحبة الأرنب . وتستمرّ الصيغة المجازية حين يدخل المسافر في المشهد : فهو ، على حين غرة ، «ولد» «طفل الأرض السعيد» ؛ وتُعقد له صلة بـ «هذه المخلوقات السعيدة» . وفي الذكرى ينظر إلى «شغل الحياة» بوصفه «مزاجاً صيفياً» . ومع غلبة السوداوية على مزاجه يغدو الشاعران الميتان تشاترتون وبرنز استعارتين للشاعر نفسه . وجامع العلق نفسه ، في مظهره الأول ، يوصف مجازياً بأنه حجرة ضخمة «مضطجعة على القمة المكشوفة للهضبة» و«حيوان بحريّ زحف نحو . . . الشمس نفسها» . وههنا كلّ شيء يمكن أن يسأل عن شعر الوهم : المظهر الرشيق والعفوي - سواء في الفرح وفي الكآبة - الواضح في إشارته .

وكذا، فإن شيئاً قد بدأ يتغير مع إدخال صورة الرجل العجوز. والرجل العجوز، حتى حين يشبه بحجر وحيوان بحري، هو صورة للخفاء؛ «أعجوبة لكل من ينظر النظرة نفسها». ويبدو هذا الإنسان العجوز - وليس هذا بعسير - كما يبدو. حجرة، لكنه يظل يبدو «شيئاً ذا إحساس». وهو لا يبدو «حيّاً تماماً ولا ميتاً، / ولا نائماً تماماً». وعلى هيكله المنحني يقع «أكثر من ثقل بشري». ولا يتوقف المجاز تماماً - يقف «ثابتاً كغيمة» لكنه يسوحى به أكثر مما يمكن للمجاز وحده أن يحمله. لأنه، أيضاً، صورة للتناقضات: لا حي ولا ميت؛ إنسان لكنه أكثر من إنسان، خشن المظهر لكنه «ذو نطق رفيع»؛ ضعيف مع أنه قوي ومصمم نسبياً⁽¹⁵⁾.

وكلما تقدمت القصيدة، وكلما صارت الصلة بين الشاعر والرجل العجوز أعمق وأشد - تبين أن الرجل العجوز - صار أكثر من مجرد نفسه:

ظل الرجل العجوز واقفاً يتحدث بجانبى؛
لكن صوته الآن عندي كجدول
قلما يسمع. ولا أقدر أن أميز كلمة من أخرى؛
وقد بدا هيكل الرجل كله
كإنسان رأيته في منام؛
أو كرجل أرسل من صقع بعيد؛
ليسبغ عليّ قوة إنسانية، بنصح ملائم.

(15) جاء تعليق وردزورث على هذه الفقرة في «المقدمة The Preface» لسنة 1815 - حيث يجعلها من فعل الخيال وحده - تعليمياً: «في هذه الصور، نجد التحدّث، والتجريد، والقوى المعدّلة في الخيال - التي تعمل مباشرة أو بوسيط - تدلّج جميعاً. وتزوّد الحجرة بشيء من قوة الحياة تقرّبها من حيوان البحر، ويُنزع من حيوان البحر بعض من خصائص الحياة فيه لجعله مشابهاً للحجر؛ حيث تعالج الصورة الوسيطة، من ثم، بهدف تقريب الصورة الأصلية، صورة الحجر، من مشابهة كبيرة للتمثال وحال الرجل المسنّ، الذي يجرد من كثير من علائم الحياة والحركة لتقريبه من النقطة التي يتوحد فيها الشيطان ويدبحان في ماثلة تامة». «النقد الأدبي عند وليم وردزورث، ص 149. ومرادنا هنا، أن هذه الفقرة ليست من فعل الخيال وحده، بل من فعل الوهم Fancy والخيال Imagination يؤديان عملهما بتساوق. [المؤلف].

لقد غدا جامع العلق جزءاً من الشاعر - على الأقلّ جزءاً من حلم الشاعر -
و جزءاً من الحقيقة المتعالية وراء نفسه . وهو يغدو أخيراً ، بالنسبة إلى الشاعر ،
جزءاً من الطبيعة نفسها .

وفي عين عقلي تراءى لي أنني أراه ينقل الخطو
حول السّباخ المضجّرة دائماً ،
يطوف حولها وحيداً بصمت .

لقد غدا الرجل العجوز ، من خلال رؤية الشاعر إيّاه ، من نفس طبيعة
الشاعر ، وكذا من نفس طبيعة العالم حوله وفوقه ، جالباً الطبيعة كلّها ، والزمان
كلّه ، والأبدية كلّها ، فيما يبدو ، لتسكن في نفسه .

لقد أسلفنا فيما تقدم أنّ شعر الخيال مؤلّف من خيال ووهم ، من رمز ومجاز .
وما توحى به قصيدة «التصميم والاستقلال» يمضي بنا خطوة أبعد من هذا :
فالوهم في أحسن حالاته قد يزجّ الخيال في الحركة ، والصورة والمجاز في أحسن
حاليهما ، أو في أشدّ كثافة لهما ، يتحرّكان في اتجاه الرمز . والمجاز ، في أشدّ كثافة
له ، يطمح إلى منزلة الرمز ، حين يجهد الشاعر لعناق قدر أكبر من الحقيقة . ومن
الحتم المقضيّ أن تكون قصيدة الخيال ، حسب الاصطلاح الكولريديجي ،
عضوية . إذ تشرع ببذرة ، أصل ، تستخلص الغذاء لنفسها ، ومن ثم تبدأ في
«توليد أجزاء من أجزاء» . وقد يكون هذا الأصل صورة أو مجازاً بسيطاً ، لكنه
يمكن أن يتنامى - مثلما يتنامى جامع العلق Leech-gatherer - إلى أبعاد الرمز ،
المركب والمفتوح ، و ، أخيراً ، الخفيّ .

فما هي ، إذن ، الصلة بين المجاز والرمز؟ - إمّا - على غرار جامع العلق - أن
يصير المجاز رمزاً ، وإمّا - على غرار المجازات الثانوية في القصيدة - أن يجمع في
رمز أكبر منه ، أو يصنّف تحته . وقد يعمل الوهم مفرداً ، لكنه في أحسن أحواله
يوضع في خدمة ملكة أسمى منه هي الخيال . وعلى غرار ما سُمع كولريديج
يقول قبل فإنّ «العبقريّة ينبغي أن تمتلك الموهبة بوصفها مكماً لها وأداة ، مثلما
أن الخيال ، على نحو مماثل ، ينبغي أن يمتلك الوهم . ونقول ، باختصار ، إنّ

القوى العقلية العليا ليس في مقدورها أن تعمل إلا من خلال طاقة مماثلة للقوى الدنيا⁽¹⁶⁾.

طبيعي أن تكون «المقدمة The Prelude» قصيدة الخيال غير المنازعة لدى كولريدج. وهي أيضاً قصيدة تعمل تحت رعاية الخيال، ولكن ذلك يتم بتعاون دائم مع الوهم. وهي قصيدة ذات إشارة ورنين رمزيين لا يضاهيان، وهي في الوقت نفسه قصيدة يستخدم فيها المجاز بمهارة لا تضاهي. لكن الطرق التي يتفاعل فيها الرمز والمجاز، وخاصة في عمل في مثل هذا الطول ومثل هذا التعقيد، قد يتوقع أن تكون كثيرة.

فهناك أولاً للمقاطع الواضحة المجاز، وهذه صيغت في «المقدمة» عموماً بمهارة فائقة، تضيء التجربة في الوقت الراهن بوضوح تام، لكنها لا تمضي إلى ما وراء هذا الوضوح في الإشارة والرؤية. ويتابع وردزورث في الكتاب الثالث، مثلاً، بعد التعبير عن الأسف للتغيرات التي حدثت في كامبردج ولقرصه الضائعة هناك، قائلاً:

ولكن سلاماً أيها الأسف الفارغ! فنحن لا نرى إلا بخفاء
حتى حين ننظر خلفنا، وأحسن الأشياء
ليست واضحة تماماً بما هي كذلك، ذلك لأنها ضرورات
ينبغي أن يلتزم بها الجميع، مثلما يعتقد الجميع بولع،
بأسمى وعد لها. وإذا كان البحار،
وهو على مسافة مرعبة، وقد مرّ
بجزيرة جذابة، لا يكون في مقدوره أن يعرف إلا الشرور
التي ينبغي أن تكون قد وقعت عليه فسحب مركبه إلى الأرض مدفوعاً بشوق
إلى الشاطئ،

فسيكون له غالباً سبب معقول لأن يعتقد بأن الأمواج
التي أربعه نطاقها الأبيض هناك، أو الريح التي عصفت
إنما تخاصمه بعناد: أما أنا

(16) حديث المائدة Table Talk، ص 481 (20 آب، 1833).

فلست حزينا؛ إذ سعيد ذلك الشباب المفلّح ببرده،
وهو لا يفتقد إلا ما افتقدته، ولا ينحدر إلى أسفل مما انحدرت.

(الكتاب الثالث، 482-496)⁽¹⁷⁾

المجاز واضح ورشيق، وقد استمدّ الدرس بحلّة وقوة.

ولكن ما أكثر ما تكون الحال مختلفة، ونحن نجد الحركة نفسها التي رأيناها في قصيدة «التصميم والاستقلال» حيث المجاز يتحرك في اتجاه الرمز، ويصير أخيراً رمزاً. وثمة مثال خلّاب ومؤثر قبل هذا في الكتاب نفسه، في وصف وردزورث لكلية القديس يوحنا، وفيه سلسلة من المجازات التي تتدافع مفعمة بالوهم قبل أن يعود إلى المجازات الأكثر جدّية التي تعبّر عن عمق مشاعره نحو إسحاق نيوتن. وأخيراً، فإنّ المجاز غير كافٍ لنقل إحساسه بالوجود الغامض للتمثال الوحيد - ويغدو المجاز، للحظة، رمزاً.

كان القديس يوحنا صاحب الإنجيل راعياً:
إذ له ثلاثة بلاطات قوطية؛ وفي أولها
كان مقرّ إقامتي، في زاوية بعيدة عن الأنظار،
وتحت مباشرة، مطابخ الكلية التي كان ينبعث منها
صوت مدندن، أقلّ تجانساً من طنين النحل،
وإن لم يكن أقلّ انشغالاً منه؛ مع صيحات عالية
للتصحّح الحادّ والتوبيخ ممترجة.
وقد علّقت بجائني ساعة صحّابة للثالوث الأقدس،
وهي لا تدع الأرباع، ليلاً أو نهاراً،
تنزلق من دون أن تعلن عنها، وتعلن الساعات
مرتين بصوت مذكر أو مؤنث.
وكان أرغونها المدوّي جاري أيضاً،

(17) كلّ الاقتباسات من «المقدمة The Prelude» ستستمدّ من المقدمة The Prelude؛ أو «اتساع عقل الشاعر Growth of a Poet's Mind»، نشر إرنست دي سلكورت؛ الطبعة الثانية، التي نقحتها هيلين درايشير (أكسفورد، 1959). ومستخدم النسخة المعدلة لسنة 1850 دائماً.

ومن على وسادتي، حيث كنت أجيل الطرف على ضوء
القمر أو النجوم الحانية، استطعت أن أرى
مدخل الكنيسة الصغيرة، حيث انتصب تمثال
نيوتن بموشوره ووجهه الساكن،
ذلك الفهرس الرخامي لعقل لا يني
يطوف في الأبحر الغريبة للفكر، وحيداً.

(المجلد الثالث، 46-63).

وفي النهاية، تبقى الصورة - التمثال - ويبقى المجاز - الـ «فهرس الرخامي
للعقل». رغم أننا جوهرياً في دنيا الرمز، «يطوف في الأبحر الغريبة للفكر،
وحيداً». وهناك الصورة المنعزلة أكبر دائساً مما كان نيوتن في الحياة، خفياً في
قوته، وسرمدياً، ووحيداً. وليس في وسع مجاز صرف أن يتضمن هذه الرؤية
الملازمة.

أما كون هذا الانتقال من المجاز إلى الرمز عملية مدركة نسيباً من جانب
وردزورث فإنه يغدو واضحاً حين نقارن بين الأبيات القليلة الأخيرة لهذا المقطع
وبين النسخة المعدلة لسنة 1805. وقد قال هناك:

واستطعت، من مخدعي، في الليالي المقمرة
أن أرى أمامي مباشرة، على بضع ياردات،
مدخل الكنيسة الصغيرة، حيث انتصب تمثال
نيوتن، بموشوره ومحيّاه الصامت.

(3، 56-59؛ النسخة المعدلة لسنة 1805).

وقد نحى وردزورث بمنهجية، في النسخة الأخيرة، العناصر الدقيقة («أمامي
مباشرة، على بعد بضع ياردات»)، وأدخل صوراً من الشك أو الإطلاق («على
ضوء/ القمر أو النجوم الحانية»)، وأضاف عناصر الغموض، والعزلة،
والسرمدية («الفهرس الرخامي لعقل لا يني/ يطوف في الأبحر الغريبة للفكر،
وحيداً»). وما فعله فعله بقصد ليوجّه المجاز نحو الرمز - رمز المغامر المنعزل
فوق هضبة، الذي سيغدو من حيث الفكرة الرئيسة مهماً أكثر فأكثر في سائر

«المقدمة The Prelude» منتظماً والتجلي المناخي الأخير على جبل سنودن.

ولعلّ المثال الأكثر تعقيداً لمقطع يغدو فيه المجاز رمزاً إنما هو حادث استراق مركب، في الكتاب الأول من «المقدمة». ويبدأ بلغة مجازية بسيطة (شجرة الصفصاف - الكهف الصخري)، وبمجاز معتدل (الأصدا أصوات، دوائر الضياء تختلط، والجرف فوق «مركب فاتن»، الزورق مضى مثاقلاً في الماء كالإوزة). ولكنه حين يتصاعد «القمة الضخمة، سوداء وضخمة» عالياً من وراء الجرف فوق، يسود المشهد، ويتغير المزاج. وثمة انقباض مفاجيء للقلب حين ترى القمة الضخمة حيّة «وكأنه مفعم بقوة اختيارية». حيث كان ثمة سكون «البحيرة الصامتة»، المحفوفة بالمغامرة الصيانية لـ «فعل سرقة ومتعة مضطربة»، وثمة الآن الخوف وحده. وهو خوف يتزايد، ويغدو أعمق وأكثر كثافة - حين يغدو مجازُ الجبل الحيّ أكثر كثافة وأكثر غموضاً، حتى إنه يصل إلى النجوم.

اندفعتُ، واندفعتُ ثانية،
والتناول المستمر في القامة ذات المظهر الشرس
علا بيني وبين النجوم، وقد ظلّ،
لأنه بدا كذلك لغاية في نفسه
وبحركة متزنة كشيء حيّ،
حت الخطأ ورائي.

(المجلد الأول، 380-385).

وحتى بعد عودة الصبي «بالمجازيف المرتجفة» لم يكمل الرمز. وما قد بدأ بوصفه قمة جبل «مفعمة» بالحياة وسيكون قد زاد عما هو عليه - أو اجتلب الأشياء إليه - قد تعالى إلى النجوم، وهبط بأنباء الأشياء وراءه، أنباء «صيف مجهولة للوجود»، أنباء «أشكال هائلة وجبارة، لا تحيا كالناس الأحياء».

... أما بعد أن رأيتُ
ذلك المشهد، فقد ظلّ عقلي، لعدة أيام،
منشغلاً بإحساس غامض وغير محدد

بصيف مجهولة للوجود؛ وفوق أفكاري
أسدل ثمة ظلام، سمّه عزلة
أو هجراً صرفاً. لم تبقَ ثمة أشكال مألوفة،
ولا صور ممتعة من الأشجار،
البحر أو السماء، ولا ألوان للحقول الخضراء؛
لكنّ ثمة أشكالاً هائلة وجبارة، لا تحيا
كالناس الأحياء، تنقلت ببطء في العقل
نهاراً، وكانت تعكيراً لصفو أحلامي.

(المجلد 1، 390-400)

لقد انتقلنا من عالم المجاز، عالم «الأشكال المألوفة»، إلى عالم الرمز. ليس
ثمة درس مستفاد، بل إحساس بالغموض فحسب - إحساس بتجربة يعزّ
التعبير عنها تماماً، ولعلّ ذلك لأنّ التجربة نفسها لما تنته.

ولعلّ مقطعاً آخر، مختلفاً جداً في المؤدى، يؤدي إلى مماثلة مثيرة لهذا. وذلكم
هو المقطع الموجود في الكتاب السادس مما يلي مباشرة اكتشاف الشاعر المذهل أنه
جاز جبال الألب. ومع صحبه واصل السير «عبر منحدر سمبلون والطريق
الوعرة». وقد شقّ اثنان من الشفر، حيث تركهما الدليل بعض الوقت، طريقهما
إلى الأعلى، ممثلين «أماً يقودهما إلى الغيوم». وخشية التيه هبطاً حالاً، ليتعرّفا
من فلاح عابر أنّهما اجتازا جبال الألب، وهو ما كان مجهولاً تماماً بالنسبة إليهما.
وقد بقيت عندهما «آمال تقودهما إلى الغيوم»، على الرغم من أنّ هذه الآمال قد
حققت من قبل، ولكن من دون نشوة، من دون هزة القلب التي كانا يتوقعانها.
أما إحساس الخذلان والهبوط المفاجيء فواضح تقريباً.

وإنه لأكثر أهمية حتى من هذا التجربة التي تأتي بعد. إذ يبدأ الشاعر يتأمل
مجازياً التجربة التي قد عاناها لتوه. أولاً، خياله

وردة من لجة العقل
كضباب مجهول الأصل يدور،
بسرعة، مسافراً وحيداً.

(6، 594-596)

الشاعر الآن هو المسافر المنعزل، وثمة درس له في هذه التجربة. وفي مقدوره أن يقول «لعقله الواعي» عن هذه التجربة: «اعترف بمجذك». ولكن ما شأن العقل غير الواعي الذي ما تزال عنده «آمال تقوده إلى الغيوم»، ويتوق إلى لحظة الرؤية؟ والإجابة عن ذلك في دنيا المجاز هي أنه دائماً يمتلك في داخله «قلب وجودنا ووطنه»، وأنه يكون مطلعاً أتم الاطلاع حين يكون لديه أمل لنفسه -

أمل لا يموت،
سعي، وتوقع، وتوق،
وشيء ما دائماً على وشك أن يوجد.

(6، 608-606)

ويتحوّل المجاز لحظةً إلى رمز عسكري، معبراً عن التحقق نفسه من أنّ الإتمام ليس في الإنجاز وإنما في السعي.

تحت رايات عسكرية كهذه، لا تنشد النفس
أنصافاً تذكارية، ولا تقاتل من أجل غنائم
قد تشهد لها بالبأس، سعيدة بأفكار
هي كماها ومكافأها.

(6، 609-612)

أما الحبور المتأتي عن سعي كهذا فهو:

كالفيضان القوي لنهر النيل
المنسكب من ينبوعه في الغيوم الحبشية
ليخصب السهل المصري كله

(6، 614-616)

ناهيك عن تأمل الشاعر، عن تعبيره المجازي عما في مقدوره أن يفهمه عن مشاعره ومعناها. فلقد حدّثنا عنها بوضوح وبإشارة، لكننا لم نجرّبها. وهناك أكثر من هذا يمكن أن يأتي. لقد مرّت الكتابة - خلال لحظات من التأمل الحذر

- ورحلة النزول تتواصل . وتأخذ سرعة السير، السريعة في البدء، بالتشاكل .
وحين تتباطأ الرحلة تأخذ الانطباعات في الانصباب على الشاعر من مشهد القفر
حوله . وحين تتزايد وحشة هذه الانطباعات، وتتنامى حدتها، لا تبقى
مشاهدين، بل تجتذب نفوسنا إلى المشهد الوحشي . وإن كثافة القصّ نفسها،
مشفوعة بالتقدم «الدينامي» للغة المجازية نفسها، تُظهر أنّ هذا لم يغد تأملاً
لتجربة ماضية وإنما إعادة خلق للتجربة نفسها . ونحن نراها ونشعر بها في جملتها
بأنفسنا :

القمة الشاهقة

من الغابات النخرة، لا يمكن أن تتلاشى،
والنفخات الثابتة للشلالات،
وفي الشق الضيق في كل منعطف
رياح تعوق رياحاً، مذهلة ومهجورة،
السيول المنطلقة من السماء الزرقاء الصافية،
الصخور التي غمغمت عند آذاننا،
والأجراف السود التي تمطر رذاذاً
كأنّ فيها صوتاً، المشهد المريض
والمنظر المستهتر للجدول الهادي
والغيوم التي أطلق سراحها ومنطقة الفردوس،
إنه الشغب والأمن، الظلمة والنور.

(6، 624-635)

ما هذه التجربة؟ - إنها حتماً تجربة ذات طبيعة متناقضة: الغابات الميتة
والسرمدية رغم ذلك، الشلال المتحرك والساكن رغم ذلك؛ السيول الهائجة
التي تبدو منصبة من سماء هادئة - الشغب والأمن، الظلمة والضياء. وهي أيضاً
تجربة توحد؛ لأنّ المقطع يمضي: كلّ هذه الأضداد المتصارعة ..

كانت جميعاً أعمالاً لعقل واحد، قسّات
للوّجه نفسه، أزاهير على شجرة واحدة؛
خاصيات لسفر الرؤيا العظيم،

أغاطاً ورموزاً للسرمدية،
للأول، والآخر، والوسيط، ومن دون نهاية.

(6، 636-640)

ويوجد ههنا مجاز مرة أخرى، في هذا المقطع النهائي - عقل واحد، وجه واحد، شجرة واحدة - لكنه مبين تماماً لمجازات «التأمل» الأسبق. وهذه مجازات في خدمة رؤية شاملة - مما سادعوه أنا المجازات التي «تتلمس طريقها»، التي تحاول التعبير عن أجزاء من رؤية لا تنطوي عليها هذه الأجزاء. ولعلّ الرؤية الرمزية الحقيقية في هذه التجربة للهبوط إنما هي، مرة أخرى، رؤية للغز. وهو أحد أكبر الألغاز البشرية، أو ربما هو مركّب من جملة ألغاز - العلاقة بين الأحد والمتعدّد، صراع الخير والشر، «اتّسلاف الأضداد» (لنستخدم عبارة كولريديج)، الصراع بين الحزن والطمأنينة في نفس الإنسان. وليس في مقدور أحد أن يقول إنها رؤية هذا أو ذاك؛ لأنها رؤية للغموض.

ولا نقصد بهذا أن نقول إنّ هذه الرؤية لا تجلب الطمأنينة. فهي قادرة على جلب الطمأنينة - على الرغم من كلّ توتراتها وصور غموضها - ذلك أنها ليست رؤية غموض صرف. وبحسّ المرء في معاناة هذه الرؤية، وفي خلقها ثانية، بأن الشاعر يستطيع الآن أن يتقبّل حقيقة غامضة. ولهذا فإنّ إحدى الوظائف الكثيرة للرمز، ليس فقط أن يساعدنا في أن نرى، بل ليفتح لنا مجال قبول الغموض. وليس من شأن الرمز أن يأذن لنا أن نبصر تعقيد التجربة البشرية فحسب، بل يحفظ في الوقت نفسه هذا التعقيد في انسجام - نوع التوحد العاطفي الذي في استطاعتنا أن نتقبله بوصفه ذا معنى إلى حدّ ما. ولا يشرح الرمز الغموض، بل يساعدنا أن نعيشه - ونعيشه بفرح. فهو ينظّم العماء Chaos أسطورياً لا مفهوماً.

وتطالعنا نماذج آخر لهذه الفاعلية المشتركة للمجاز والرمز، وللمجاز المتنامي في الرمز. وهناك حلم العربي (5، 50-140)، ويحوّل فيه الحجر والقذيفة اللذان حملهما العربي، بفعل خيال الشاعر ومن دون أن يلغي كونها حجراً وقذيفة، إلى

كتابين، عناصر إقليدس Euclid's Elements و (ربما) القرآن. أما مغزى الرمز فيتسع: الحجر - «هو الحجر الذي اكتسب علماً بالنجوم» - شاملاً «العقل، غير مشئت بالمكان أو الزمان»؛ والقذيفة، رغم إيقاعها، تنبئ بـ «التدمير بالنسبة إلى أطفال الأرض»، رغم أنها ذات قوة إلهية لـ «تنعش الروح، ولتهديء في كل إقليم قلب». وليست الحركة دائماً من الغموض إلى الوضوح، بل من الوضوح إلى التعقيد، حين يتسع مدلول الرموز في خيال الشاعر. حتى رمز العربيّ يتغير، يغدو رمزاً لدون كيشوت.

والآن

صار، في وهمي، الفارس
الذي يقصّ حكايته سرفانتس؛ رغم أنه ليس الفارس،
بل كان عربياً صحراوياً أيضاً؛
ولم يكن أحداً من هذين، وكان هذين كليهما فجأة.

(5، 121-125).

لكنّ هذا الكيشوت العربيّ يتغير في سلوكه أيضاً، من رمز بارع يستطيع أن
يمثّل شخصية الأسقف للحالم «بنظرة هادئة» إلى رمز مضطرب يرى في البريّة
وراءه «أمواه الجزء العميق من البحر/ تتجمّع علينا»، ممتطياً بخوف

القفر الذي لا يحّد،
مع الأمواه السريعة لعالم غارق في أخذود منه.

(5، 136-138)

ولا غرو في أنّ الشاعر «استيقظ مرتاعاً» على رؤية مثل هذا الهول ومثل هذا
الغموض.

ويمكن أن يضرب المرء مثلاً أيضاً لقاء الشاعر بالجندي المتجسول (4،
469370) - الذي يذكر بقوة بجامع العلق - الذي يبدو جامعاً في نفسه كلّ عالم
الفقير المعاني، وعالم الحرب، والمرض، والجوع، وغياب الأصحاب - الذي

«يتلاشى في سياق الطبيعة»⁽¹⁸⁾ في نهاية المطاف، على غرار ما يلاحظ ديفيد بركنز David Perkins. أو أن المرء يمكن أن يعود إلى المشهد العظيم الصاحب لمعرض بارثوليميو (7، 675-771)، بادئاً بشغب الإنسانية في أكثر أشكاله غرابة - مشهد مفصل بعمق - ومن ثمّ يتنقل في الخيال (النفس تعمل كالبحر الذي «يدفع، من منطقة إلى أخرى، / تياراته؛ يضخم الأخطار المحجوبة لحياته / وراء كل نطاق») ليعانق عالم الإنسانية الرحب كله. وفي هذا التعقيد الهائل كله، ومن دون افتقاد إحساس بالتعقيد، يجد الشاعر الإيقاع، «روح الطبيعة». أو أن المرء، يمكن، أخيراً، أن ييتم شطر عيد الغطاس العظيم الأخير في المقدمة The Prelude، هبوط جبل سنودن (14، 1-129)، حيث الـ «معاراة الرائعة للبحر - «بحر صامت ذو ضباب أشيب» - تنداح إلى رؤية رمزية تضمّ الأرض، البحر والسماء، اللجة القاتمة، العقل الإنساني، الله المتعالي، مهما كان ويكون وسيكون «إلى أن ينتهي الزمان».

وفضلاً عن مقاطع «المقدمة» التي هي مجازية فحسب، وعن تلك المقاطع التي يتنداح فيها المجاز إلى رمز، ثمة مقاطع يتفاعل فيها المجاز والرمز على نحو مختلف نسبياً. وأنا أفكر خاصة بالمقاطع التي يكون فيها المجاز والرمز حاضرين كليهما، لكنها يظلّان متميزين في تفاعلها.

وهناك مقطع بسيط المظهر إلى حدّ مضللّ في الكتاب الرابع، ويغدو أكثر تعقيداً كلّما تأمله المرء - لكنه رغم ذلك يظلّ لدى الإنسان اقتناع بأنه، حقيقةً وعلى نحو ما، بسيط نسبياً.

مثلي أن الإنسان الذي يتدلّى منحنيّاً من جانب
مركب بطيء الحركة، على صدر
ماء ساكن، معزّياً نفسه
باكتشافات من مثل هذه التي تستطيع عينه أن تفعلها

(18) والبحث عن الدوام The Quest for Permanence: الرمزية عند وردزورث وشلي وكيتس (كيمبردج، ماساشوستس، 1959)، ص 17.

تحت في قعر المحيط،
يرى مناظر جميلة كثيرة - طحالب، أسماكاً، أزهاراً،
كهوفاً، حصاً، جذور أشجار، ويتوَقَّم أكثر،
لكنه، رغم ذلك، يدوخ غالباً ويعجز عن تمييز
الظل من الأصل، الصخور والسماء، فيض
الجبال والغيوم، وهي تنعكس في عمق المد الصافي، من الأشياء التي تظل هناك
في دارها الحقيقية؛ وتجتازه ومضة
من صورته حيناً، وحزمة من شعاع الشمس حيناً آخر،
وحركات متموجة لا يدري مصدرها،
عوائق تجعل مهمته أكثر حلاوة؛
كهذه المهمات السارة التي طالما بحثنا عنها
متكئين على سطح الزمان الماضي
بما يشبه التجاح، من دون أن تبدو
مظاهرُ أجمل أو أقلَّ تجلياً
من هذه التي إليها، يا صديقي المتسامح
ستوجه الحكاية الآن انتباهك.

(4، 256-276)

وتشير الافتتاحية «مثل as» إلى أن تشبيهاً على وشك أن يبدأ. لكنّ بداه لا
يسبق كثيراً إيجاء كثرة «المشاهد الجميلة» - التي امتزجت حالاً بإرباك للأحاسيس
- بأننا قد دخلنا في التشبيه بعمق أكبر مما في مقدور المجاز وحده أن يتحمّل.
تغدو الأشياء مختلطة. ويتسع نطاق الأشياء الجميلة شيئاً فشيئاً: فإلى الطحالب،
والأسماك، والأزهار، وهوّما يتوقَّع المرء أن يجده تحت الماء، أضيفت الصخور
والسماء، والجبال والغيوم من علّ، ونفس المشاهد، وأخيراً «حركات متموجة
لا يدري مصدرها». وقد غدا هذا كله رؤية رمزية أساساً، حاملة في داخلها
قدراً من الحقيقة لا يحمله مجاز صرف، وهو يتضمّن حقائق متعالية غيبية مجهولة
«لا يدري مصدرها». وتظلّ هذه الرؤية، رغم ذلك، متضمّنة في بنية التشبيه،
وحتى في تشبيه غير مكتمل. لأنّ المشار إليه في التشبيه يقُدّم الآن فقط «كهذه
المهام السارة التي طالما بحثنا عنها، / متكئين على سطح الزمان الماضي».

وذكرى الشاعر جميلة، وذاهلة، وغير واضحة المعالم، كالرؤية في الماء. فهل هذا مجاز أو رمز؟ - واضح أنه الاثنان. ولكن في أي مرحلة «يغدو المجاز رمزاً؟» - وأقترح ههنا أن العملية مختلفة بعض الشيء: إذ لا يصير أحدهما الآخر، بل يتفاعلان من دون أن يفقد أيّ منهما هويته الخاصة. ويوجد اختلاف هذه العملية في وصف دخول الشاعر لندن.

على سطح
عربة متجولة جلستُ،
وحولي أناسٌ غلاظ، صور تافهة
لببوت، ورصيف، وشوارع، لأناس وأشياء، -
أشكال وضيفة في كلّ جانب؛ ولكن، في اللحظة،
التي غداً يمكننا أن يقال لنفسي بمشروعية،
إنّ العتبة قد عُبرت الآن، (وما أغرب
أنّ التفاهة الخارجة عن العقل الحيّ
ينبغي أن يكون لها مثل هذا السلطان الجبارا ورغم هذا كان الأمر كذلك)،
ها قد نزل سلطان الأعصر حالاً
على قلبي، فلا فكر يحسّد، ولا
ذكريات تميز، بل سلطان وقوة، -
قوة تتنامى تحت السلطان: واحسرتاه! أشعر
أنّي أعبت: فقد كان توقف لحظة، -
وكلّ ما حصل في داخلي جاء وانصرف،
كما في لحظة؛ رغم أنه يحيا مع الزمان،
وذكرى مستحبة، كشيء إلهي.

(8، 543-559)

وقد انتقل الشاعر من الصور المبسطة في المشهد نفسه، بإقحام قاسٍ للمجاز - خلا المجازات اللطيفة جداً في «العتبة» و«سلطان الأعصر» - إلى رؤية رمزية. والسلطان والقوة هما من الماضي غير المحدّد - وتجربتهما «شيء إلهي» - لكنهما مربوطان. بأسلوب لا يعبر عنه، بالمشهد أمامه: «ما أغرب / أن التفاهة الخارجة عن العقل الحيّ / ينبغي أن يكون لها مثل هذا السلطان الجبار».

ويعبر الآن عن شيء من هذه الرؤية الرمزية، أو على الأقل يحاول الشاعر أن يعبر عنه، في المجاز الذي يأتي، للمسافر «الذي من يوم مفتوح، / مسرّ ومعه المشاعل في كهف هائل» (8، 560-561). ولكن حتى حين يبدأ المجاز - وسيكون الكهف الهائل العاصمة لندن الفسيحة - تمضي الرؤية وراء نطاق «أشكال الثبات والتحديد» في المجاز إلى غموض الرمز وتعمقه.

ينظر حوله فيبصر السماء
ممتدة في سائر الاتجاهات؛ وسرعان ما يرى، أو يعتقد أنه يرى،
السقف الكبير فوق رأسه،
ينزاح ويتراجع حالاً، -
الأصل والظل، الضياء والظلمة،
تتزوج جميعاً، وتشكّل ظلة
من الأشكال والصور وميولاً إلى تشكيل
ذلك الذي ينزاح ويغيب عن النظر، ويتحوّل ويتبدّل
كالأشباح - هياجاً صامتاً وسامياً!

وعلى الرغم من أنّ هذا كلّهُ متضمّن في البنية المقوّسة جداً في مجاز بسيط - حيث ترى المدينة ككهف - فإنّ المجاز يعانق الرمز، ولكن من دون أن يتشرّب أحدهما الآخر، أو يصنف تحته.

لقد صارت حركة التجربة معقّدة، لكنّ التعبير عنها كامل: التحرك من الصورة البسيطة إلى الرمز المعقّد (دخول لندن وسقوط «سلطان العصور») يعقبه تعبير مجازيّ موازٍ عن التجربة (دخول الكهف)، متضمّناً الرؤية الرمزية (الرؤية في الكهف). وههنا، مثلما هي الحال في الرؤية من حافة المركب، تظلّ العناصر المجازية والرمزية متمايزة بوضوح، ورغم ذلك تتفاعل فيما بينها بقوة هائلة. وكذا فهو تعبير آخر عن المثل الأعلى لدى كولريديج: الوهم موضوع في خدمة الخيال. ونحن في شعر وردزورث موجّهون حقّاً نحو رؤية الشاعر للغموض. وأدوات توجيهه كثيرة: العقل والإرادة والذاكرة، الخيال والوهم، الصورة والمجاز والرمز. وهي جميعاً في النهاية تحت حماية الخيال، في رأي كلّ من

كولريديج ووردزورث. ونعمل البقية جميعاً، حين يعمل الخيال في أعلى درجة له، على إيجاد العالم الرمزي، حيث يمكن أن يحدث اللقاء الأعمق. وهو لقاء الشاعر مع نفسه العميقة، مع عالم الطبيعة والناس. مع الحقيقة المتعالية التي ندعوها الله. إنه لقاء القارئ، أيضاً.. من خلال لقاء الشاعر وقصيدته - مع هذه جميعاً.

لقد أسلفنا القول إنَّ اللقاء هو مع عالم الغموض، وهو كذلك. والصفة الخاصة للرمز أنه قادر على إدخالنا في هذا العالم من دون استبعاد الغموض. يكتشف الرمز الأسرار العميقة للحياة البشرية، لكنه ينيط مقاومتها النهائية بالوحي. يترك الرمز الأسرار على غرار ما يجدها.. مرعبة، قاهرة، متألقة بالظلمة والضياء.

الفصل الرابع

شعر اللقاء: كولريديج

سيكون من الظلم لكولريديج أن نمثل لفكرته عن الرمز بشعر لوردزورث فحسب. وقد أعطي شعر وردزورث الأسبقية لأنه من عمله الذي مثل به كولريديج نفسه لنظريته. فوردزورث هو دائماً الشاعر الرمزي الذي لا يُضاهى.

ولكنه شيء أكبر من مجرد كياسة يقتضي أن نعود الآن إلى شعر كولريديج نفسه. وقبل كل شيء يمكن أن تقدم حجة قوية تتمثل في أن كولريديج، وليس وردزورث، هو المؤثر الحقيقي. وقد نُظمت النسخة الأصلية لـ «قيشارة عولس» *The Eolian Harp*، بعد كل شيء، سنة 1795، في السنة نفسها التي أنهى فيها وردزورث تلك القصيدة الحقيقية للقرن الثامن عشر «أبيات مكتوبة على مقعد في شجرة طقوس»، وقبلها بثلاث سنوات أنهى نُظَمَ «A Night-Piece» و «Tintern Abbey» - وقد نُظمت قصيدة «This Lime-tree Bower my Prison» سنة 1797. وعليناً، على أقل تقدير، أن نسلّم بقوة حجة ما سماه توماس مكفرلاند «تكافل» كولريديج ووردزورث في تطورهما الشعري⁽¹⁾. وعلى المرء، على أقل تقدير، أن يأخذ في الحسبان تفاعل الأخيلة في رائعة «السنة الجديرة بالإعجاب *the annus mirabilis*» في موضع نيدرستوي والفوكسدن.

(1) «الرمزية عند كولريديج ووردزورث»، دراسات في الرومانسية، 11، (1972)، 263-303.

وهناك، ثانية، مسألة اختلاف أسلوب كولريدج عن أسلوب وردزورث. ومهما كان حظ قصائد المحادثة «Conversation Poems» في أن تغدو مثل نظيرتها لدى وردزورث في فحواها الرمزي، فإن قصائد عما فوق الطبيعة «poems of the supernatural» تظهر اعتبارات آخر حول الرمز الذي علينا ألا نغفله.

ونبدأ بـ «قيثارة عولس The Eolian Harp»، ليس لأنها مثال كامل لشعر اللقاء الرمزي - إذ من المسلّم أنها شيء غير بالغ الكمال سواء في التخطيط أم في التنفيذ - بل لأنّ مقطع «One life» فيها، يقف بجدارة في صميم الرؤية الشعرية لكولريدج. وربما لا نقرّ وصف كولريدج إياها بأنها «القصيد الأكثر كمالاً من كلّ ما نظمت»⁽²⁾، بل يعزّ تصور قيمتها.

تبدأ القصيدة بأبسط لغة مجازية: الكوخ، الياسمين، الآس العريض الأوراق. وتبدأ أيضاً بجعل هذه الصور ما سميناء المجازات الأكثر لطفاً - رمزاً - «يواجهون رموز البراءة والحب»⁽³⁾. وثمة رمز آخر، «نجم الليل / المتألق بصفاء» - «كذا ينبغي أن تكون الحكمة» - والمجاز الأكثر طموحاً في «العود the Lute»، «قيثارة عولس Eolian Harp» أيضاً. لكن الحركة الأكثر أهمية في القصيدة، ليست حركة من صورة إلى صورة، من مجاز إلى مجاز، بل حركة نحو كثافة أشدّ. والأبيات التسعة الأولى تستدعي، بوضوح تام، صوراً بصرية: الأزهار، الغيوم، نجم الليل. وبعد احتكام اللحظة إلى حاسة الشم - «ما أحدّ الروائح / الملتقطة من حقل فول هناك» - يعود الشاعر إلى الصور السمعية. يهدأ العالم، هدهدة البحر «تخبرنا بالصمت». وفي ذلك الصمت ينبعث صوت قيثارة الريح - يبدأ صوتها خفيفاً عند النافذة البائية حيث يجلس الشاعر، ويتعالى كلّما تزايد النسيم - «والآن، فإن أوتارها / تدفع بقوة أكبر» - وفي الوقت نفسه تتحرك خارجاً في الخيال حين تغدو:

(2) اقتبس جيمس ديكز كامبل، طبعة الأعمال الشعرية لصموئيل كولريدج، (لندن، 1893)، ص 578.

(3) النصّ الذي استخدم بشأن قصائد كولريدج سيكون نصّ الأعمال الشعرية الكاملة لصموئيل تايلور كولريدج، طبعة إرنست هارنلي كولريدج، (أكسفورد، 1912).

مثل سحر صوت ناعم عائم
كما تصنع جنّيات الفجر، حين تقوم ليلاً
برحلة على متن عواصف لطيفة في أرض الجن،
حيث الألمان حول أزهار يساقط منها العسل،
بلا أقدام ووحشية، كمصافير الجنة،
لا تتوقّف، ولا تجثم، وترفرر بجناح غير مروّض!

وقد حرّر الشاعر لحظةً، إذ يبدو أنّه أيضاً «بلا قدم وبرّي»، وهو أيضاً
«يرفرر بجناح غير مروّض». وفي هذه الحرية الخاطفة هناك حدة جديدة في
الشعور، مصحوبة بامتزاج للأحاسيس. ولم يعد المشهد والصوت منفصلين، ولم
يعد هو منفصلاً عن عالم المساء الذي دخله لحظة. وفي هذه اللحظة من تجربة
الحس المتزامن، ثمة اندماج، ليس في الأحاسيس فحسب، بل في الحياة
والوجود نفسه.

أوه! الحياة الواحدة داخلنا وخارجنا،
تلتقي بكل حركة وتغدو روحها،
ضياء في صوت، وقوة كالصوت في الضياء،
إيقاع في كلّ فكرة، وتوتّب في كلّ مكان -
يخيّل إليّ أنّه ينبغي أن يكون مستحيلاً
عدم حبّ الأشياء كلّها في عالم مشحون على هذا النحو⁽⁴⁾.

والأمر كما يقول م. هـ. أبرامز في هذه الأبيات، إذ إنّ «الشاعر يخترق
الإحساس في رؤية ينظر فيها إلى المظاهر المأينة للمنظر الطبيعي، ألوانه،
وموسيقاه، وروائحه، بوصفها نتائج ومؤشرات للتجلّيات الأولى لكلمة الله
المبدعة، الجاذبية الأرضية والضياء، التي في أشكال اتّحادها المتعددة تتألف
الطبيعة والحياة كلّها»⁽⁵⁾. وهي لحظة رؤية رمزية - واحدة على كثرتها - فردية
جداً رغم شمولها، وغامضة بقوة.

(4) تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأبيات كانت قد زيدت أولاً في النسخة المثلثة المشورة في Sibyl-
line Leaves سنة 1817.

(5) وكولريدج، ضوء في الصوت: العلم، وما بعد العلم، والخيال الشعري، محضر جلسة
الجمعية الفلسفية الأمريكية، 116، (1972)، 474-475.

ورؤية الظهيرة التي تعقب الرؤية في الليل هي فعلياً إعادة للتجربة الأولى، أقل نجاحاً، ينبغي أن يُعترف بهذا، ليس لأنها إعادة فحسب، بل أيضاً لأنّ الانتقال إلى اللحظة الرمزية («ماذا لو أنّ كلّ ما في الطبيعة الحيّة / لم يكن إلّا قيثارات عضويّة») مفاجيء جداً، تأمل أكثر منه تجربة مشتركة.

وعلى غرار ما يُرجع «التوبيخ اللطيف» من جانب سارة الشاعر عن «تشكيلات العقل الضالّ هذه»، نرجع نحن مرّة أخرى إلى الصيغة المجازية: هذه «التشكيلات»، «الفقاعات التي تتألق»، «ينبوع الفلسفة الدائم الخرير». و«يعود» الشاعر إلى التفكير في إثمه وشكر الله على تفضّله بحياة الكوخ البسيطة مع سارة.

وعلى الجملة، فإنّ «العودة» في قصيدة المحادثة عند كولريديج، هي عودة بتصرّ جديد مستمدّ من الرؤية الرمزية. والإشكال في «قيثارة عولس The Eolian Harp»، أنّ المرء يشعر بثغرة، بصدع، بين الرؤية شبه الصوفيّة والعودة، بين التجربة ونتائجها. أما ما إذا كانت القصيدة في النهاية نبذاً لرؤيته باسم ما جعله أرثوذكسيّة مسيحيّة، كما أوحى بذلك في أوقات كثيرة، فيظلّ هناك الرؤية الرمزية نفسها. لقد بدأ بالحقائق العاديّة للحظة هادئة من السعادة: نفسه، زوجه الجديدة⁽⁶⁾، بيتها الصغير، الأزهار، نجم الليل، قيثارة الريح الملقاة في النافذة البايّة. وكذا، فإنّ الريح لا تشغل القيثارة فقط؛ إذ تُشغل خيال الشاعر أيضاً، ونحن نُنقل في الحركة الثانية إلى عالم خيالي، يبدو متناثراً أكثر فأكثر من العالم الحقيقي ومن ليلهما الهادئ معاً. ومهما يكن، فإنّ الشاعر في الواقع يجد أنّ هذه النقلة التخيلية قد نقلته، غير بعيد عن الواقع، بل على العكس إلى وعي أعمق للانعزال عن الأشياء كلّها، سواء أكانت حاضرة لديه أم لا. فلقد دنا من صميم غموض اتّحادٍ أعمق حتّى من صميم

(6) لعلّه من غير الواضح كون النسخة الأصليّة للقصيدة تعود إلى ما قبل زواج كولريديج من سارة فريكر في تشرين الأوّل سنة 1795 أو ما بعده، أمّا على صعيد التخيل فالموقف جليّ. [المؤلف].

هذه الحياة الهائلة من دون انقطاع. وعلى غرار ما قال رونالد ونديغ، فإن «موسيقا العود، المتحدة من قبل «بلومها العذب» هي الآن نتاج الاتحاد بين النسيم والعود، نفس الشاعر وسارة، الخيال المبدع والطبيعة الخارجية التي تخصه، العالم «داخلنا» والعالم «خارجاً». وطبيعي أن «وليد» الشاعر هذا هو الرمز، الذي أنجبت قوة الخيال المحللة والناشرة والمبددة حين تضيء روحاً على المواد المتلقاة من التجربة العادية للإنسان»⁽⁷⁾.

إن مجاز الولادة مجاز ملائم جداً؛ لأنه المجاز الذي يستخدمه كولريديج نفسه على نحو مفرط: الخيال هو «تلك القوة المؤلفة والوسيلة، التي... التي تلد نظاماً من الرموز»⁽⁸⁾. وتقضي هذه الولادة مروراً من المجاز إلى الرمز، من عمل الوهم إلى عمل الخيال. مثلما يعبر عنه ونديغ: «يقدم كولريديج نفسه أولاً النسيم، والعود وموسيقاه على أنها أدوات لسلسلة آلية نسبياً من المقارنات... أما في مقطع «الحياة الواحدة»، فيمسك بثمرات الوهم هذه ويولد منها سلسلة من الرموز»⁽⁹⁾. والمواد التي يمكن أن تنتزع برؤية مفردة صارت واسعة جداً، ومتباينة جداً، وحتى موهمة جداً بالتناقض، إلى حد أنها لا يمكن أن تلتقط بتوازن إلا بوساطة رمز، يمكن أن يعانق من دون أن يُقيّد، ويمكنه أن يلتقط بـ «حقق قوة» مفرد أي شيء أدير في فلكه.

وابتغاء أمثلة أكثر للرؤية الرمزية في «قصائد المحادثة»، تحسن العودة إلى «This Lime-tree Bower my Prison» أو «الاكتئاب: قصيدة غنائية - Dejec- tion: An Ode». فهي تمثل تماماً نوع التفاعل بين المجاز والرمز الذي كنا قد تكلمنا عليه، متقدمة نحو لحظة الرؤية الرمزية - أو، في حال «الاكتئاب»، إلى عدد من لحظات كهذه - لكثافة وجمال عظيمين. ومهما يكن، فإن صفتها الرمزية، في ضوء كل شيء قد قلناه قبل - ومع الأخذ بالمصطلحات الفنية عند

(7) «كولريديج وتناغم «قيسارة عولس» Coleridge and the Consistency of the Eolian»

Harp، دراسات في الرومانسية، 8، (1968)، 33.

(8) «كتيب رجل الدولة The Statesman's Manual»، ص 29.

(9) ونديغ: ص 33.

كولريديج ووجهة نظره - ستكون واضحة تماماً. أمّا المثال الأكثر إثارةً، لأنه ليس واضحاً تماماً ولأنّ حركته مختلفة نسبياً عن «قيثارة عولس»، فهو «العندليب» .
«The Nightingale» .

تبدأ «العندليب»، مثل سائر «قصائد المحادثة»، بهدوء. فالوقت ليل، ووهم الشاعر يستجيب للمشهد الساكن أمامه: الجسر المكسوّ بالطحالب، الوميض الصامت للنهر تحت مباشرة، النجوم الباهتة فوق. وواضح أنّ هذا صنيع الوهم، لكنّه الوهم الذي يُغدق الجمال بغزارة. والشاعر وهو يفكر بعتمة النجوم يتذكّر المطر الذي تبشّر به هذه العتمة، ووهمه يقترح:

... دعنا نتأمل دقات المطر الربيعية
التي تنعش الأرض الخضراء، وسوف نجد
متعة في عتمة النجوم.

ثمّ يأتي صوت العندليب. ويوحى غناؤه لوهم الشاعر بعبارة ملتون عن Il Penseroso «أكثر موسيقىّة، أكثر كآبة». ويبدأ ههنا ما يمكن تسميته طيران الوهم - اعتقاد الشاعر أنّ من استبدّ به البلاء هو وحده من في وسعه سماع أغنية العندليب وتسميتها أيّ شيء خلا أن تكون سارة. وقد كان «بائساً فقيراً» ذلك الذي

ملأ الأشياء كلّها بنفسه،
وجعل الأصوات اللطيفة كلّها ترجع حكاية
أساه.

وكثيراً ما تبنّى الشعراء بعد ذلك «الرأي الشخصي» نفسه. وهكذا، فإنّه بقدر ما كانت استجابة كولريديج الخاصّة للأغنية رأياً شخصياً وهمياً، كانت القصيدة نفسها عملاً لوهمه، وضيائه وسحره، غير ملازم له ملازمة شخصيّة.

أمّا الآن، فإنّ ما فعله شاعر الماضي بالرأي الشخصي للعندليب متعارض مع ما ينبغي أن يفعله الشاعر. وما ينبغي أن يفعله ليس استخدام ثوابت العالم المحيط به ومحدّداته (وهي هنا أغنية العندليب) بوصفها «فيشات» في لعبة وهميّة

من إبداعه، بل أن يفتح على كل عالم الأشياء والقيم حوله - من دون أن يكون منعزلاً ومنفصلاً بقدر ما هو معانق وأذن لنفسه أن تُعانق.

... لقد آثر أن يمدّ أوصاله
بجانب غدير في وهدة مطحلبة مغطاة بالأشجار،
بضوء الشمس أو القمر، إلى دقات
من الأشكال والأصوات والعناصر المتقلبة
مسلياً روحه كله، ناسياً أغنيته
وشهرته! وهكذا ينبغي أن يكون لشهرته
نصيب في خلود الطبيعة
شيء جدير بالثناء! وهكذا ينبغي لأغنيته
أن تجعل الطبيعة كلها محبة أكثر، وأن تجعل نفسها
محبوبة كالطبيعة!

وما أحسب أن هذا أيضاً رؤية رمزية. إنه، على الأصح، وهمٌ يعرب عن
حاجة إلى شيء وراءه، مطلب رمزي. وهو هذا المطلب الرمزي الذي يغدو
أساساً لبقية القصيدة.

أما بالنسبة إلى الشعراء الذين يعولون على الوهم وحده، فإنه «لن يكون
كذلك» - المطلب الرمزي لن يكون مشعوراً به. ومهما يكن، فإن الشاعر
وصديقيّه (وليم ودورثي وردزورث) «قد تعلّموا/ علماً مختلفاً». لقد تعلّموا أن
«أصوات الطبيعة الحلوة»، وفيها صوت العندليب، هي «دائماً مملوءة حباً/
وفرحاً». وأقترح أن الشاعر لم يتعلّم أن أغنية العندليب فرحة فحسب، بل
تعلّم أيضاً - كما توضّح ذلك بقية القصيدة، نتائج هذا التأمل - أن يكون
كالعندليب، الذي يستطيع أن

يصدق
بترنيمته حبه، ويُفرغ نفسه المشحونة
من كل موسيقاها!

والعندليب الذي هو جزء من الطبيعة وعلى وفاق معها يغني بحرية، وليس

بحكم العادة. وهو «يُفرغ نفسه المشحونة/ من كلّ موسيقاها!». والشاعر أيضاً في مقدوره أن يغني بحرية. بفتح نفسه على العالم المحيط به «بأن يسلم روحه كله» إلى «أشكال وأصوات وعناصر متنقلة» في العالم، وهو أيضاً يستطيع أن «يُفرغ نفسه المشحونة/ من كلّ موسيقاها».

هكذا إذن ما يفعله الشاعر الآن؛ يغني أغنية. وهذا جواب المشكلة التي اعترضت سبيل القراء أحياناً إلى هذا القسم من القصيدة؛ إذ شعروا أن القصيدة تأخذ في الابتعاد عن موضوعها مع إقحام حكاية القلعة و«العذراء اللطيفة»⁽¹⁰⁾، تلك الحكاية المبتورة التي ترجع إلى القرون الوسطى. ما لدينا هو حقاً أغنية داخل أغنية، والرابط العضوي بينهما هو أغنية العنادل.

وتبدأ أغنية الشاعر الجديدة، «تحرره الموسيقي»، بقصة، قصة لا تُنتهى، بل يزداد تأزمها إلى نقطة الرؤية الرمزية. وطبيعي أن القصة يُوحى بها إيجاء من خلال القلعة، و«اللورد» الكبير والأيقنة البريّة. وهي تُستخدم لإثارة الأغنية فحسب. وتنتمي الأغنية، بإيجاز شديد، إلى العنادل، التي تملأ موسيقاها الغابة، والأجمة، والأيقنة الواسعة، حين «تتجاوب ويثير كلّ منها أغنية الآخر». وأغنيتهما هي حالاً القوة الموحدة للمشهد، خاصّة

صوت منغم خفيض أعذب من سائر الأصوات -
يمزج النغم بانسجام،
فعليك أن تغمض عينيك، فربما
تتسى أنّه لم يكن يوماً!

هذه اللحظة القصيرة من التناغم ليس مصدرها الصوت وحده، لأنّه مصحوب بمشهد العنادل نفسها، وهي جاثمة على الشجيرات المضاعة بضوء القمر، و«أعينها المتألقة» تتلألأ في ضوء القمر، بينما تطلق الجبابب في الظل ضيائها الناعم.

(10) انظر جورج واطسون: «كولريدج الشاعر Coleridge the Poet»، (لندن 1966)، الصفحات 72-73.

وما هذه اللحظة من الرؤية - وهي رمزية في وحدتها وفي إيجائها - إلا مقدمة
لرؤية أكمل تأتي في النهاية. وتتصاعد اللحظة بعودة خاطفة إلى الشكل
القصصي:

عذراء أكثر لطفاً،
تعيش في بيتها المضياف
الذي يصعب الوصول إليه في القلعة...
حيث تنسل في الممرات.

ومن وجهة أخرى، ما هذا إلا إطار لحركة عميقة: حيث الفتاة التي تسمع
ثانية صوت العنادل، وهي، على نحو ذي أهمية، «تشبه سيّدة تُنذر وتُكرّس/
شيء أكثر من الطبيعة في الأيكة». والرؤية التي تتحرك نحوها هي من شيء
أكثر من الطبيعة الصرفة؛ فتمة «شيء أكثر من الطبيعة في الأيكة». وبدلاً من
إيقاع الأصوات - مثلما هي الحال قبل، يوجد ههنا أولاً «وقفة صمت» في نفس
اللحظة التي فيها القمر «يحجب بغيمة». وهو صمت «يُسمع»، صمت منذر،
وحين يطلع القمر هناك تفجر الإيقاع. وتفجر الإيقاع هذا هو اللحظة الرمزية
التي تتقدم القصيدة نحوها، وهي تنامي سريعاً في كثافة الشعور، جالبة، فيما
يبدو، ذكرى «قيثارة عولس» ورؤية التوحد فيها.

... تعرف كلّ أصواتها،
تلك العذراء الكريمة! وكثيراً ما سمعت، للحظة،
وبقدر ما حجبت غيمة القمر وراءها،
وقفة صمت؛ وإلى أن يطلع القمر،
وقد تبّه الأرض والسماء
بإحساس واحد، وتلك الطيور المستيقظة
تنفجر جميعاً بغناء جماعي،
كأنّ عاصفة مفاجئة قد أثارت حالاً
مئات القيثارات الهوائية!

وتنتهي الرؤية على نحو جميل - وعلى الأصح بهيج - بلمحة نشوة واحد

فحسب من عالم العنادل هذا كله ، وأغنيته الآن متناغمة مع النسيم ومع كل
عالم الأرض والسماء :

وقد أجالت الطرف
في عدد من العنادل التي تحثم بلا مبالاة
على غصين مزهر متارجحاً مع النسيم ،
وعلى هذه الحركة يضبط أغنيته البهيجة
كالكسكس الذي يترنح برأسه المتمايل .

وحين تنتهي الرؤية ، يكون هناك عودة من عندليب الرؤية المنتشي المنفرد إلى
العندليب الأصلي في القصيدة : «وداعاً ، أيها الشادي ! حتى غدٍ مساءً» . وهناك
عودة جميلة ، أيضاً ، إلى الأصدقاء الذين كان قد وقف معهم على الجسر .
وهناك ، أخيراً ، المباركة الكولريديجية الأتمودجية ، جزء من ثمرة الرؤية . وهي
هنا مباركة الطفل ، الذي قد يزداد نصيبه في هذه الرؤية ، فربما لا يعرف نجم
الليل والتأثير الهاديء للقمر فحسب ، بل يعرف أيضاً فرح أغنية العندليب .

وواضح أن ثمة رؤية رمزية في قلب هذه القصيدة ، رؤية توحد ، وغموض ،
وفرح . ما «الرمز» في هذه الرؤية الرمزية؟ مرة أخرى ، ليس هو هذا أو ذاك ،
على الرغم من أن الصور والمجازات تشير باستمرار إلى هذا وذاك : ترنيمة الحب
لدى العندليب ، أثارة ضياء الحباحب ، قيثارات الريح ، الثمل . و«الرمز» ، إن
كان يمكن أن يدعى كذلك ، هو مجموع تجربة الصوت والحركة - وأخيراً التوحد
الغامض - للأرض والسماء والأشياء كلها في كل مكان ، مع أغنية العندليب
بوصفها نقطة المركز في هذه التجربة . والرمز ، على نحو ما ، بين المجازات ، أو
على الأصح حولها ، يعانقها ، ويضفي عليها حياة غنية . ومثلما هي الحال دائماً ،
يظل الرمز قابلاً للوصف فحسب ، وغير قابل للتحديد .

تبدأ مناقشة قصيدة «The Rime of the Ancient Mariner» تقليدياً بمحادثة
كولريديج الشهيرة مع تلك السيدة صاحبة «الذوق المرهف» السيدة باربولد . ولن
نكون نحن محطمين للتقليد . فقد شكت السيدة باربولد (على غرار ما يصف

كولريديج المحادثة في Table Talk) من افتقار القصيدة إلى الأخلاقي⁽¹¹⁾. وقد أجاب كولريديج، على النقيض من ذلك، بأن «النقيصة الوحيدة، أو الرئيسية، إن جاز أن أقول مثل هذا، كانت إقحام العاطفة الأخلاقية بجرأة كبيرة على القارئ بوصفها مبدأً أو باعثاً للفعل في عملٍ من نتاج الخيال الصرف». هل هذا إنكار لأن يكون للقصيدة «معنى» أخلاقي أو غير ذلك؟ لا شك في أن الأمر ليس كذلك. ولا شك في أن كولريديج يشير إلى «عنصر أخلاقي» لدى البحار Mariner في نهاية القصيدة («يصلّي أحسن صلاة ذلك الذي يحبّ خير حبّ...») مُقحم بوضوح تامّ على الحكاية، مع خطر تقييد مغزاها في ذهن القارئ. ونعاد ثانية إلى تمييز كولريديج بين القصة الرمزية allegory والرمز، بين معنى يمكن تحديده، ومعنى يعزّز تحديده (فعلياً).

على أن ما هو مهمّ عن «البحار العجوز The Ancient Mariner» في سياق هذه المقالة، أنها تواجه مباشرة إحدى المشكلات الأساسية التي أثارها الرمز والشعر الرمزي: مشكلة المعنى. وإحدى مناطق الاهتمام البشري والشعري التي عبّر عنها بوضوح في القصيدة هي بدقّة مشكلة الرمز، طريقة الإنسان في التعبير بوضوح عن تجربته في العوالم التي تظلّ جوهرياً غامضة وعصية على الفهم.

وكثيراً ما يكون أفضل المفاتيح التي في أيدينا لهذا كلّ مجهولاً، الشعر التمهيدي للقصيدة - شاهد مُتصرّف به نسبياً مستمدّ من Archeologiae Philosophicae (1692) لتوماس برنت. وفي مقدور المرء أن يفترض أنّه مجهول عموماً؛ لأنّه في اللاتينية، لكنّه يظلّ، على غرار الحواشي الثرية التي أُضيفت في الوقت نفسه، جزءاً من النصّ كما تركه كولريديج لنا. أما أنا فأجد أن الشعر والحواشي جميعاً تضيف إضافة لا حدود لها إلى غنى القصيدة، وليس إلى وضوح حركة القصيدة فحسب، ولا شك أن هذا الوضوح هو مبعث إضافة كولريديج إيّاها إلى النسخة المعدّلة المنشورة سنة 1817. وكانت الحواشي استجابةً من كولريديج للصعوبة التي يواجهها قارئ ذلك الوقت في متابعة الحركة المعقّدة

(11) حديث المائدة Table Talk، ص 324، (31 أيار، 1830).

للعمل؛ وهي لا تزيل التعقيد، بل تقدّم طريقاً خلالها سيأذن للقارىء بأن يجرب المجاهل التي يتنقل فيها. وقد قصد بالشعار اللاتيني أيضاً أن يكون مؤشّر توجيه، ولكن من نوع مختلف. وإذا ما كانت الحواشي إشارات طريق، فسيكون الشعار، من ثمّ، ضرباً من التحذير العام بشأن ظروف الطريق، والمنطقة والطقس في ما سيأتي.

«Facile credo, plures esse Naturas invisibiles quam visibiles in rerum universitate. Sed horum [sic] omnium famillian quis nobis enarrabit? et gradus et cognationes et discrimina et singulorum munera? Quid agunt? quae loca habitant? Harum rerum notitiam semper ambivit ingenium humanum, nunquam attigit. Juvat, interea, non diffiteor, quandoque in animo, tanquam in tabula, majoris et melioris mundi imaginem contemplari: ne mens assuefacta hodiernae vitae minutis se contrahat nimis, et tola subsidat in pusillas cogitationes. Sed veritati interea in vigilandum est, modusque servandus, ut certa ab incertis, diem a nocte, distinguamus»¹².

وحين ندخل هذه القصيدة ينبّهنا شعار كولريدج، جوهرياً، على ألا نتوقع وضوحاً ساطعاً في الرؤية. فهي عالم معقّد، أو عوالم، ندخلها، وهي ملأى بالأسرار وليست بالأسرار التي في مقدورنا أن نتوقع فهمها تماماً: «Harum rerum notitiam semper ambivit ingenium humanum, nunquam attigit» و «semper» و «nunquam» كلمتان قويتان: مهما بحثنا عنهما فلن نجدهما بوضوح أبداً. وننبّه حتى قبل الشروع على أنّ هذه قصيدة تدور حول عوالم أكبر كثيراً من أن تُفتح، وحول أسرار أعمق كثيراً من أن يُحاط بها بالكلمات الصرفة

(12) الترجمة: «أعتقد ببساطة أنّ هناك أشياء غير مرئية أكثر من الأشياء المرئية في الكون. ولكن، من ذا الذي يصف لنا عوائلها، ومراتبها، وعلاقاتها، محدداً الخصائص والوظائف؟ وماذا تفعل؟ وأين تحيا؟ وكثيراً ما بحث العقل البشري عن معرفة هذه الأشياء، لكنه لم يحصلها. ومهما يكن، فليس لدي شك في أنّه من الخير أحياناً أن نتأمل بالعقل، كما في صورة، صورة لعالم أرحب وأفضل؛ ومن وجهة أخرى، فإنّ العقل، الذي عوّد على الأشياء التافهة في الحياة اليومية، قد يقلص نفسه، ويغوص تماماً في الفكر التافهة. لكنّه علينا، إبان ذلك، أن نكون متنبّهين للحقيقة وملتزمين بالانسجام؛ فقد تميّز المحدث من غير المحدث، النهار من الليل». استمدت الترجمة من «الكتاب الرومانسيين الإنكليز»، طبعة ديفيد بركنز، (نيويورك، 1967)، ص 405.

- وحتى حول الحاجة إلى محاولة فتحها، للإحاطة بها - ومن ثم فإنها قصيدة ذات قيمة ودلالة رمزيتين.

وابتغاء الدخول بمضاء أكثر في صميم مشكلة المعنى الرمزي التي أثارها قصيدة «البحار العجوز The Ancient Mariner» سيكون مفيداً أن نعود إلى دراسات القصيدة التي قام بها روبرت بن وارين وهنري هاوس. وقد استطاع الرجلان أن يلقيا الضوء على المسألة بدقة؛ لأنها يختلفان في الرأي بقوة في شأن المعنى الرمزي للقصيدة.

أما مقالة روبرت بن وارين الشهيرة «قصيدة من الخيال الصرف: اختبار في القراءة»⁽¹³⁾، فتبدأ بما هو عند بعضهم هدف مشبوه «إثبات لأنّ «البحار العجوز» تجسّد بياناً، وتحديد لطبيعة ذلك البيان، الفكرة، بأقرب ما أستطيع» (ص 201). على غرار ما يعرضه أخيراً في مقالته: «إذا كان للبحار العجوز من معنى، فما ذلك المعنى؟» (ص 212). ومهما يكن، فإنه سرعان ما يغدو واضحاً أنّ الصيغة الثانية لهدفه ربما تكون الدقيقة: فهي بدقة بحث عن المعنى أكثر منها بحثاً عن البيان. لأنّ البحث يُوجّه في الضوء التام - المنعكس في عنوان المقالة - لفكرة كولريديج عن الخيال، التي «تشغل نفس الإنسان كلها»، وليس قواء المنطقية فحسب. وإن كان ثمة «معنى» في القصيدة، فإنه لن يكون منطقياً صرفاً، بل معنى أدواته كلّ القوى الإدراكية للإنسان، الانفعالية والعقلية، الغريزية والواعية.

يجد وارين في «البحار العجوز»، قبل كل شيء، معنى مضاعفاً، حتى على مستوى الموضوع. «إنّ أيّ عمل حقيقي سوف يعمل على أكثر من مستوى واحد للموضوع، وهذا ما يجعل من العسير جداً أن نحدّد موضوع إبداع عميق؛ إذ سيكون للفكرة الأساسية عدّة صيغ ممكنة، وسيظهر كثير منها، أو يُوحى به، في العمل» (ص 213). وينبغي أن يكون جلياً، من ثم، أنّ وارين

(13) مقالات مختارة Selected Essays، (نيويورك، 1958)، الصفحات 198-305.

حين يمضي إلى «التمييز بين موضوعين أساسيين، كلٌّ منهما غنيٌّ جداً ومثيرٌ، لا يياشر تحديداً بسيطاً - حتى لا نقول مفرطاً في التبسيط - للمعنى الوحيد في القصيدة. ورغم وضوح صيغة «تحديده»، يظلّ هونفسه «غنياً وموحياً».

يُميّز وارين في القصيدة موضوعين، أحدهما أوليٌّ والآخر ثانوي. ويسادر إلى إضافة أن هذا لا يتضمّن حُكْمَ قيمةٍ نسبية، بل يتضمّن أن الأول «يُقدّم إلينا بوضوح أكثر، وأنه، إن جاز القول، على عتبة القصيدة» (ص 214). الموضوع الأولي هو «موضوع الرؤية المقدسة، أو موضوع الحياة الواحدة». أما الموضوع الثانوي فهو «موضوع الخيال». ثم يمضي في إظهار الترابط، وفي الحقيقة «الاندماج الرمزي» بين هذين الموضوعين.

وفي تناول الموضوع الأولي يُلخّص وارين أولاً «الخرافة، في عبارات فضفاضة وبسيطة» بوصفها «قصة جريمة وعقاب وندم واثتلاف»: «يقتل البحار العصفور؛ فيعاني آلاماً كثيرة، لعلّ أشدها التوحد، والتأزم الروحي، ويُعيد إدراك جمال حيّات البحر القادرة، يعاني تدفق الحبّ إزاءها؟ ويكون قادراً على الصلاة؛ ويُعاد بأعجوبة إلى مينائه الأم، حيث يكتشف فرح مشاركة الإنسان في الإلهي، ويعبر عن نزوعه الأخلاقي بصلي خير صلاة ذلك الذي يحبّ خير حب، إلخ». ونصل إلى فكرة المحبة الكونية... إحساس «الحياة الواحدة» التي يشترك فيها الخلق جميعاً (ص 222).

هذه الإعادة الصرفة لرواية الخرافة ليست كافية، لأنّ هذا شعر رمز symbol وليس شعر قصة رمزية Allegory. ويقول وارين (ص 218): إنّ الرمز عند كولريديج «بؤريٌّ وثقيل». وهو «يستدعي فكرة (أو فكراً) بوصفها جزءاً من إمكانيته، لكنّه يستدعي أيضاً مركب المشاعر الخاص المتحد بتلك الفكرة، الموقف إزاء تلك الفكرة. ويرسخ الرمز وحدة العقل في اضطراب التجربة... ويمثّل بؤرة الوجود...» (ص 218). وفضلاً عن كونه «بؤرياً وثقيلاً» يكون الرمز «غير اعتباطي - ليس علامة صرفة - بل يتضمّن في داخله الإغراء الذي يجعله قابلاً للعمل بوصفه رمزاً» (ص 218). وعلى الرمز «أن يشترك في الوحدة

التي هو رامز لها. ويعني هذا أن للرمز صلة بالبنية الكاملة للمعنى أعمق منها بموضعه الآلي في الحبكة، والحالة، والخطاب» (ص 220).

وينبغي إذ ذاك أن ينظر إلى الخرافة - قتل القَطْرَس ونتائجه - في سياق وضعها الرمزي الكامل. ووضعها جملةً ينبغي أن يبقى متوازناً إن أريد لنا أن ندخل لغز هذا العمل البهيج المفترض. وهو وضع المتع والأشواق البشرية، وضع صور التقوى والعصيان الشرين، لكنه أيضاً وضع صور الجمال والرعب الطبيعيين، وصور الوحي فوق الطبيعي للعظم المذهل والإيجاء الملازم. وليس قتلُ القَطْرَس ببعيد عن صور القصيدة الأخرى الطبيعية والبشرية، ولا عن صور عالمها فوق الطبيعي. فهي واحدة من حيث الرمز. وكل صورة، وكل فعل، جزء من وحدة أكبر منه. وما يحدث في حقل له آثار في كل شيء آخر في القصيدة. ومن خلال الحياة مع البحار، في نتائج فعله - نتائج في عالم الطبيعة، والناس، وما فوق الطبيعة، النتائج التي هي مخيفة ومروعة، جميلة وغامضة - ستتعلم مدلول مظهر واحد لجريمته ومظهر رفاقه البحارة: فقد انتهكوا التصور المقدس للكون، بجعل ملاءمة الإنسان معيار الفعل، من خلال عزل الإنسان عن الطبيعة والـ «حياة الواحدة» (ص 232). ومن خلال إقحام أنفسنا في العمل الأساسي بكل خصوصيته فحسب - العمل الإجرامي مع كل نتائجه الغامضة - سنكون قادرين على الإحساس بمعناه، إن لم نكن قادرين على التعبير عنه بوضوح.

ومهما يكن، فإن وارين يقول إن ثاني موضوعه تستدعيه الفجوة الموجودة في تبيان الأول: «إذا ما تابع المرء في القصيدة الموضوع الواضح لـ «حياة الواحدة» كما عرضته جريمة البحار، وعقابه، واثتلافه، فستثيره حقيقة أن مساحات واسعة من القصيدة تبدو غير ذات صلة بالمسألة: على سبيل المثال، الجواهر الخصاص للقصيدة وصور معينة يلوح أنها معطاة دلالة خاصة، وهي الصور التي تقدم بسبب الإصرار عليها» (ص 233).

ولا يفسر الموضوع الأول القصيدة في تمامها؛ خاصة أنه لا يفسر تكرار صور

بعينها. ويركّز وارين خاصة على اللغة المجازية للضوء: الشمس والقمر، والنجوم، والضوء الساطع ونصف الضوء، ومجموعة كاملة من الأشياء الأخرى. وما ينشأ هو أن تثبت في القصيدة نماذج محدّدة من اللغة المجازية، وما «إن تثبت دلالة صورة في عقولنا، حتى يعزّ انتزاع تأثيرات تلك الصورة فينا في موضع آخر من القصيدة، سواء أكنّا نحدّدها بوعي أم لا» (ص 237). وتركّز النماذج، أو «المجموعات الرمزية» عموماً حول اللغة المجازية للضوء، على غرار ما يكون لدينا في مطلع القصيدة، مثلاً، توحيد لـ «الريح المبدعة، والعصفور المحبّب، وضياء القمر، في الخيال، مجتمعة في مجموعة رمزية واحدة» (ص 239). وحين تتقدّم القصيدة يصير واضحاً أنّ هناك رموزاً معيّنة، وخاصة القمر، هي رموز رحيمة عادةً؛ وأخرى، وخاصة الشمس، حاقدة عادةً، وتظّل صور أخرى، كالريح، غامضة - مبدعة أحياناً، وهادمة أحياناً أخرى.

ولعلّه بوساطة أدوات من هذا القبيل أيضاً يدمج الموضوعان المقدّس والجهلي. «وما إن تثبت المجموعة (المجموعة الأولية الرحيمة المتركزة حول القمر، حتى تعلن الجريمة بمباغثة مثيرة. لقد رأينا كيف تقرأ الجريمة على مستوى الموضوع الأولي. وطبيعي أنّها، على مستوى الموضوع الثانوي، جريمة بحق الخيال. وههنا، في الجريمة، يدمج الموضوعان» (ص 239). وهناك الرمز الرحيم للقمر، ثم الجريمة، ثم: «طلعت الشمس الآن على الحق». ويقول وارين: والحال كأنّ الجريمة تحلّ الشمس محلّ القمر الودود (ص 240).

ومن المستحيل في هذه الإلمامة أن نقدر تقديرًا صحيحاً الثراء والبراعة في دراسة وارين الطويلة توسيع كولريديج هذين الموضوعين، على أنّ ما هو مهمّ لدينا ههنا، هو أنّ الموضوعين - مع وضوح تبيان وارين إياهما - يظللان موحين براء، وأنهما ليسا منفصلين، بل «مدموجان» (ونستخدم هنا عبارة كولريديج) بفعل قدرات القصيدة. وعلى غرار ما يقول وارين عن «الدمج النهائي للخيال والرؤية المقدسة» في «مقدورنا، إن جاز التعبير، أن نجعلها مظهرين للحقيقة نفسها» (ص 248). نظمت القصيدة بسبب الاعتقاد أنّ «الاهتمام الأخلاقي

والاهتمام الجمالي مظهران للنشاط نفسه، النشاط الإبداعي، وأن هذا النشاط معبر عن العقل كله». والقصيدة «عموماً، حول وحدة العقل والوحدة النهائية للقيم، وخاصة حول الشعر نفسه» (ص 253). فهي، أساساً، الضياء الرحيم للخيال الذي يشفي ويؤلف، الذي يجمع الأشياء كلها، وفيها الكون المقدس، بتناغم. وأخيراً فإن البحار الذي ما يزال مواظباً، ومتجولاً حول العالم ليحكي حكايته، هو الشاعر نفسه. والأمر الأخلاقي والأمر الجمالي ليسا منفصلين.

وهمفري هاوس، في مقالته «البحار العجوز»⁽¹⁴⁾، أكثر ضيقاً بقراءة وارين للقصيدة، وأكثر امتعاضاً من درجة التخصيص التي يورط وارين نفسه فيها على نحو خاص. وليست مشكلة هاوس مع الموضوع الأول؛ ذلك أن الموضوع المقدس لـ «الحياة الواحدة» واسع إلى حد يكفي لانسجامه مع الذنب/ استعادة الحركة التي أقر النقاد المحدثون جميعاً بكونها في قلب القصيدة. وتركز الأسئلة التي يسألها هاوس بشيء من الإلحاح على قراءة وارين الموضوع الثاني:

«إلى أي حد تنجح في إعطاء تفسير متماسك ومقنع للتفصيل المتنوع في الأجزاء الصعبة للقصيدة؟ - وبأي إحساس تثبت أن هناك موضوعاً هو «موضوع الخيال»؟ (ص 107). وإجابتنا هاوس عن كل من هذين السؤالين سلبتان إلى حد كبير.

ويقاوم الاختلاف بينهما، كما يشير هاوس نفسه، تصوّر الرمز. حيث يقول: «يبدو السيد وارين في المحاولة الأخيرة متزمتاً» (ص 108). ويتابع هاوس القول «ما يلوح أنه قد حدث هو أن السيد وارين، مبتهجاً بالتسلسل النسبي في كتلة الرموز التي تبدو في عبارة «moon-bird-mist-wind»، قد أرغم مواد أخرى على الانسجام معها، بتضييق الاختلافات في طبيعتها وفي آشارها الانفعالية. لكن إرغاماً من هذا القبيل لن يكون ضرورياً لو أن وارين انطلق من نظرية للإشارة الرمزية أقل صرامة» (ص 110). ويؤكد هاوس أن وارين ينتقل عما «هو

(14) كولريدج: The Clark Lectures، 1951-1952 (لندن، 1953)، الصفحات 84-113.

موجٍ بثناء وتنوعٍ إلى ما هو دقيق وتقنيّ»، وينشأ عن ذلك أن «موضوع الخيال» يكون «أضيق نسبياً وأكثر تقنية مما تحتل القصيدة» (ص 110). ويحدّد وارين، مثلها يمكن أن نعرضه بطريقة أخرى، ما لا يمكن تحديده جوهرياً؛ ويميل إلى ترجمة الرمز symbol بالقصة الرمزية allegory.

والحق أن هذه تهم خطيرة. ورغم ذلك، فإننا حين نعود إلى قراءة هاوس للقصيدة نجده محدداً جداً - ربما ليس بدقة تامة، لكنه يظلّ محدداً مع ذلك. ويركّز هاوس بقوة على عالمي القصيدة الواضحين جداً، عالم البحار وعالم ضيف الزفاف. والمقاطع المتكررة لحكاية البحار من جانب ضيف الزفاف يقصد بها إلى تحديد الاختلافات بين هذين العالمين. ويحدث التجوال الروحي للبحار داخل هذين العالمين كليهما، والقصيدة التي تدور حول تجربته تدخلها عن عمد في تعارض حاد. وهو، أساساً، تعارض «بين مظهرين للحقيقة، وإمكانيتين للتجربة، العالم الجسدي العياني للكائنات البشرية التي تتزوج وتنجب، وعالم الأرواح والموتى غير المرئي حيث يمكن أن يتعلّم نظام من القيم مختلف تماماً. وحصيلة مقاطعات ضيف الزفاف هي إظهار كيفية تواجد عالمي الحقيقة هذين معاً دائماً: الحصيلة التامة للقصيدة هي إظهارهما متداخلين» (ص 96).

وفي فراره من التدقيق، يقترح هاوس أنه «إن نحن قبلنا مصطلح «رمز»، فعلينا أن نقرّ للرموز بإشارة أكثر حرية، واتساعاً، وأقلّ دقة» (الصفحات 107-108). وقد نتساءل، رغم ذلك، عما إن لم يكن هناك مجال، في قراءة القصيدة الرمزية حقاً، لما هو أكثر دقة وما هو أقلّ دقة معاً؟ ألا يكون ثمة دائماً درجات كبرى وصغرى من وضوح الإشارة؟ صحيح طبعاً، كما يستخلص هاوس، أن «التركيز إنما هو على السرية وثناء السرية. ومن خلال توسيع اللغة المجازية نوجّه تدريجياً نحو التحقق من أن قيم «أرض الضباب والثلج» لها أعظم أهمية ممكنة، لكنها لا توصف» (ص 113). وعلى الرغم من ذلك، أحقّ أنها لا توصف البتة؟ لو قدر أنها كذلك فلن يكون هناك قصيدة. وهناك، بعد كل شيء، لحظات الرؤية: الجمال الجليدي للمناطق القطبية، رؤية الحيات المائية، أشباح الأرواح العلوية، أضواء وعتمات لعشرات من لحظات أخرى -

غامضة كلها في الواقع، ولكن ليست «عصية على الوصف» تماماً. ويحتفي هاوس بجملته من الشعر اللاتيني لبرنت Burnet الذي بدأت به مناقشتنا:

«Harum rerum notitiam semper ambivit ingenium humanum, nunquam attigit»

وإنه صحيح تماماً أننا لن نصل إلى نهاية في تأملنا للتجربة الرمزية في هذه القصيدة. فهي، كما يقول ١.١. ريتشاردز عن الأساطير الكبيرة، «لا يستنفدها التأمل». لكن هاوس لا يحسب حساباً لبقية وصية برنت (وكذا كولريدج):

«Juvat, interea, non diffiteor, quandoque in animo, tanquam in tabula, majoris et melioris mundi imaginem contemplari»

(«ومهما يكن، فلأنني لا أشك في أنه يكون جيداً أن نتأمل في العقل، كما في صورة، صورة لعالم أكبر وأفضل»). وإذا ما كان صحيحاً أننا نعجز عن تحديد معنى أو معاني للتجربة الرمزية في «البَحَار العجوز» أو في أية قصيدة رمزية، لنقول إنها تعني استثنائياً هذا أو ذاك، فإنه صحيح أيضاً أننا يجب دائماً أن نبين (كما يفعل روبرت بين وارين، وكما يفعل همفري هاوس) ما في مقدورنا أن نفهمه منها. وأن نفعل هذا معناه فحسب أن نفعل ما ناضل كولريدج نفسه لفعله: يبين لنا بوضوح رؤيته الخاصة للغموض.

ولا نحتاج إلى أن نتخير بين وارين وهاوس، بين أن نقول (في مصطلحات هاوس) «دقة» نسبية و«إبهام» نسبي. وطالما أن الدقة لم تنحدر إلى قصة رمزية «صرفة»، مثلما لا تفعل ذلك دقة وارين حتماً، وطالما أن الإبهام لا يصل إلى درجة الكلام المنطوق بوضوح، مثلما يفعل إبهام هاوس بزهو، فإن الاثنين يعلان فعلهما في روح كولريدج. ثمّة مندوحة للدقة في تبين الرمز، ما دام لا يزعم لنفسه أن يكون كلاً. وثمّة مندوحة للإبهام، ما دام لا يتخلّى عن البحث عن المعنى. والتحديد النيقاوي Nicene^(*)، لوحدة الجوهر بين الابن the Son

(*) نسبة إلى المجمع المسكوني المتخذ في نيقية بآسيا الصغرى عام 325 م. [المترجم، انظر المورد].

والأب the Father لا ينكسر غموض الجوهر في الثالوث الأقدس، ولا ينفي الاعتراف بالغموض مشروعية التحديد. ومثلها هي الحال في «البَحَار العجوز» نيين نحن ما نستطيع، مع إيمان بالوحي (أو القصيدة) المائل أمامنا؛ أما البقية فهي غموض.

إن «البَحَار العجوز» أساسية لتأملنا؛ لأن موضوعها - على الأقل بين أشياء آخر - العملية الرمزية نفسها. وربما لم يكن كولريديج نفسه مدركاً هذا إلا على نحو غامض عند نظمها أول مرة. لكنها عمل كولريديج، سواء أكان شعرياً أم نثرياً، تفرّس فيه طويلاً وانشغل في تأليفه كثيراً. وفي سنة 1817 نظر إلى القصيدة بعمق أكثر منه في أي وقت مضى؛ وإضافته الخواشي، وخاصة الشعار الذي استقاه من برنت، هي سبيله إلى محاولة إدخال ما كان يفكر فيه بعمق أكثر في بؤرة شديدة التركيز. ويدلنا المقبوس اللاتيني على أن «البَحَار العجوز»، هي محاولة الشاعر أن يمثل رمزياً ما يعزّ تمثيله تماماً - أشياء مرئية وغير مرئية وسائر صلاتها، «توافه الحياة اليومية» «صورة عالم أكبر وأفضل»، المحدّد وغير المحدّد، الليل والنهار، تقلبات العقل البشري نفسه - تعدّدية الأشياء، وحتى تعدّدية العوالم. ولا يمكن أن يفعل هذا كما ينبغي، لكنه على الشاعر أن يحاول.

كيف يمكن أن يفعل إطلاقاً؟ لن يكون ذلك إلا بالرمز، الذي يدع الغموض كما هو حتى حين يكشف رؤية الوحدة. يكتشف الشاعر ما كان البَحَار نفسه قد اكتشفه، تلك - بعبارة ريتشارد هافن - «النظرات الحقيقية إلى التجربة، ولكن في التجربة، التي يكتشفها البَحَار، وثمة بعد آخر غير الزمان والمكان، بعد لا تكون فيه الحدود بين الذات والموضوع، بين «أنا»، و«هو» موطّدة، بل سيّالة»⁽¹⁵⁾. ونحن الآن، مرة أخرى، في مملكة التعالي ووحدة الجوهر consubstantiality والتواصل بين العوالم، والتعبير في رموز الزمان والمكان عن أسرار ليست زمانية ولا مكانية. و«البَحَار العجوز» لكولريديج هي لا محالة حول المعنى وتوصيل المعنى. والعوالم المتباينة ينبغي أن تجمع بينها - عالم البَحَار

(15) أنماط من الوعي: بحث في كولريديج (أمهرست، ماساشوسيتس، 1969)، ص 20.

وعالم ضيف الزفاف، عالم النفس والعالم الخارجي، عالم الزمان والمكان الحالّ وعالم الحقيقة الروحية المتعالي. وينبغي أن ندخل في رؤية مفردة. وهذه مهمة الشاعر... وأساه. وعلى غرار البحار، لا تقصّ حكايته تماماً في النهاية؛ ولن يكون الرمز كافياً. لكنّ عليه أن يحاول.

إنّ ما يحدث في القصيدة هو، عند معظمنا، ما يحدث في أيّ شعر رمزيّ حقيقي، أيّ «شعر لقاء»: حيث نجذب إلى التجربة. ومثل ضيف الزفاف، نمسك ونعتقل بسرعة بفعل عين البحار المتألّقة. حيث نوضع في ما يشبه أن يكون حلماً، لكنّ تجاربه - في الذنب والإعتاق، وفي الإبعاد والإشراك، وفي الظلام والنور - تصوير، كما هي الحال في الحلم، حقيقة على نحو مروع. والأمّر، كما يقول ريتشارد هافن، «أنا مهوّن للمشاركة في تجربة البحار إلى حدّ نكون فيه مرغمين على الاعتراف بحقيقتها، والتحقّق من أنّ ما حدث له، في الشكل والنوع إنّ لم يكن في الواقعة، يمكن أن يحدث لنا. ولعلّه إنجاز عظيم للقصيدة أنها تأذن لنا، بل ترغمننا، على تأمل إمكانيّات التجربة هذه، التي لا يأذن لنا تفكيرنا العقلي عادةً أن نتقبلها (ص 22). وبوساطة الرؤية الرمزية نوضع حيث نرى، إن لم يكن حيث نفهم، عوالم جديدة، وإمكانيّات جديدة، وأسراراً جديدة، وحتى قديمة.

لقد قلنا الكثير عن «الرؤية الرمزية»، ولعلّه من المناسب أن نعود أخيراً إلى قصيدة «كوبلا خان Kubla Khan»، التي رسمها كولريدج بعنوان فرعي هو «رؤية في منام».

على أنّ جمهرة النقاد المحدثين لم تأخذ بجديّة تامة (ولا نحتاج نحن إلى مثل هذا) زعم كولريدج أنّ القصيدة ألّفت «في نوم عميق»، لكنّه يظلّ صحيحاً أنّ القصيدة تحتفظ ببعض خاصيّات الحلم: وضوح رائع في الرؤية، دقة أكثر من العادية في الإشارة، مضمومة إلى صلات غريبة، وحتى شاذّة، بين الأشياء، تُرى بحلّة متناهية. قد يكون ما هو أكثر أهميّة أنّها «رؤية». ولكنّ ما الذي يشكّل الرؤية؟ - أيمن أن يكون هذا ما يشير فقط إلى القسم الثاني من

القصيد، رؤية «فتاة مع قانون»؟ أو أليس الرؤية، على الأصح، هي الرؤية الثنائية للقصيد كلها - القسم الأول («In Xanadu did Kubla Khan») معروضة بوصفها رؤية حقيقة محدّدة، والقسم الثاني («A damsel with a dulcimer») بوصفها رؤية لمثل أعلى لهذه الحقيقة نفسها. ألا نخبرنا هذه الثنائية نفسها بشيء عن طبيعة موضوعنا، الرؤية الرمزية؟».

إنّ رؤية شانندو Xanadu نفسها واقعية تقريباً في تصويرها هذا العالم الغريب. وهي لا محالة رؤية للأضداد: غير الشمس والمشيّع بالشمس؛ الحديقة والبلقع؛ الوحشي والمقدّس؛ المهذب والمسرّف في الفوضى؛ النهر الشائر والمحيط الهادئ؛ الفردوس، وإن يكن فردوساً مهتداً بالدمار. لكنّه مع التّضادّات تظلّ الرؤية رؤية عالم غريب على نحو ما. وهذه هي «المعجزة» حيث تتولّف الأضداد ههنا. «معجزة أداة فذّة/ قبة فرح مشمسة مع كهوف من الجليد!».

ويبرز القسم الآخر من الرؤية عالماً مثالياً، ستدين فيه حقيقة عالم كوبلا Kubla في وجودها إلى موهبة الشاعر. سيكون عالماً من إبداعه، وهولن يكون، وقد يكون هذا أكثر أهمية، موضوعاً للدمار، مثلما هي حال كَوْن كوبلا. وسيُبنى «في الهواء» بالكلمات الأبدية للشاعر. إنّهُ الموضوع القديم والدائم للشعراء في سائر العصور: Exegi monumentum aere perennius. وتلّم هذه الرؤية أيضاً شعث الحقائق المتباينة نفسها، لكنّ مصدر التوحيد داخلي، إذ هو خيال الشاعر.

وإذن، أليست هذه على الأقلّ إحدى الحقائق التي تكشفها القصيدة عن الرؤية الرمزية: أنها تتصل بكلّ من الواقعي والمثالي، بعالم متعدّد موضوعياً ومع ذلك واحد، عالم يصير كذلك بتخيّل ذاتي؟ قد يقول المرء إنّ العالمين متناقضان: العالم العملي والفعلي لباني الإمبراطورية والعالم المثالي للشاعر. ومع ذلك فالقصيدة، من حيث هي رمز، قادرة على تبين أكثر من تعارض صرف. وإنّ كان ثمة توحّد معقد داخل هذين العالمين كليهما - أضداد يحتفظ بها في

توازن - فإن ثمة أيضاً توحيداً عميقاً بين هذين العالمين. وإذا ما كان هناك موضوعي وذاتي، واقعي ومثالي، فإنها جوهرية عالم واحد أيضاً. وما الرؤية الثانية إلا رؤية عميقة للحقيقة نفسها.

لقد كتب الشيء الكثير عن (Alph, the sacred river). فهل هو نهر من الحياة أو نهر من الخيال؟ أما على الصعيد الرمزي، فلا ينبغي أن يُقال هكذا ببساطة إنه أحدهما أو الآخر. وطبيعي أنه في القسم الأول من القصيدة، مهما جاز أن يكون شيئاً آخر، نهر الحياة، المارّ عبر تعقيدات التجربة البشرية. ولا ينبغي لنا أن ننسى، في الرؤية الثانية، أن النهر ما يزال حاضراً، وإن يكن ذلك ضمناً فقط، مثلما أن عالم كوبلا حاضر بتمامه. إنه جزء مما سيبيته الشاعر، جزء من رؤيته. أما ههنا، فإنه - أيّاً كانت إمكانية كونه شيئاً آخر - نهر الخيال، لأن ذلك هو القوة الفعالة في رؤية الشاعر. وليس هذان النهران متباعدين تماماً، فهما أساساً من الجوهر نفسه، مثلما أن هذين العالمين - الواقعي والمثالي - من الجوهر نفسه، ومثلما أن الحياة والشعر من الجوهر نفسه. فهناك نهر واحد، وعالم واحد، ورؤية واحدة، و«حياة واحدة داخلنا وفي العالم».

فما الرؤية الرمزية إذن؟ - إنها، جوهرية، غير مختلفة عن الرؤية التي يمتلكها الإنسان دائماً، رؤية للعالم الواقعي بكلّ تعقيداته، موضوعاً جنباً إلى جنب مع عالم مثالي، ليس أقلّ تعقيداً لكنّه (حيث يأمل الإنسان دائماً) من دون تهديد دائم بالدمار. وما هو جديد، أن هذين العالمين كليهما، يمكن أن يُجمعا بعين مفردة، برؤية مفردة. أو ربما هو، على الأرجح، أن الرؤية والحلم لم يعودا منفصلين، أو أن الخيال يرى - برؤية مفردة - ما وراء الواقعي الصرف والموضوعي الصرف، وما وراء «المجازي الصرف».

إنّ الشعر الرمزي الحقيقي كلّهُ، بمعنى من المعاني، شعر رؤية - كلام راءٍ، حالم يرى الأحلام، لكنّه ليس الرائي الذي هو مُشاهد فحسب، مشاهد لا يُسلم نفسه باطمئنان وإيمان إلى حقيقة حلمه. فكولريدج ووردزورث يحملان،

ورغم ذلك تظلّ أحلامهما حقيقة . وربما كان هذا أساساً أعظم إنجاز لهما، أن يعيدا ثقة النبي برؤياه، وإيمان الحالم بحلمه .

حذار، حذار!
فعيناه اللامعتان، وشعره المائج!
تنسج حوله دوائر ثلاثاً
واغمض عينيك بخشية قدسية،
فإنه قد تغلّى بندى العسل،
وحسا ألبان الفردوس .

الفصل الخامس

الرّمز والرومانسية

لعلّ إحدى أكثر مناقشات الرمزية حيوية في القرن التاسع عشر، إنما هي مناقشة تشارلز فيدلسون الموسومة بـ «الرمزية والأدب الأمريكي Symbolism and American Literature». ومناقشة فيدلسون لإمرسون، وملفل، وهورن، وبو، ووتمان، تبدأ، ربما على نحو محكم، بـ «مشكلة الرومانسية». ويقول فيدلسون إنّ هؤلاء الكتاب غير رومانسيين، إلّا أنّهم ورثوا «المشكلة الأساسية للرومانسية: تبرير الفكر التخيلي في عالم قد نضج تجريبياً ومادياً»⁽¹⁾. ونعود إلى نقطة بدئنا، إلى القول المأثور لكولريدج: «إنّه لمن تعاسات العصر الراهن أنّه لا يعترف بتوسط بين الحرفي والمجازي»⁽²⁾. والحق أنّ العالم قد نضج «تجريبياً ومادياً»، وكمن الجواب في «الفكر التخيلي» الذي اقتضى «تبريراً» في عيني عالم كهذا، ومثل هذا العالم يستطيع أن يتحمّل، وحتى يستخدم، القصة الرمزية، التي لم يُسمّها كولريدج «إلا ترجمة للفكرات المجردة إلى لغة تصويرية، ليست هي نفسها إلّا تجريباً لأشياء من الحواس»⁽³⁾. لكنّه لا يستطيع أن يتحمّل

(1) تشارلز فيدلسون، جر: «الرمزية والأدب الأمريكي Symbolism and American Literature» (شيكاجو، 1953)، ص 4.

(2) كتيب رجل الدولة The Statesman's Manual، ص 30.

(3) المرجع نفسه.

لالمحدودية الرمز، وغموضه، و«شفافيته». ينبغي أن يكون للكلم نهايات، مثلما هي حال العالم.

ويرى فيدلسون أن هورن كان مشدوداً بين عالمين - عالم الواقع المسلم به وعالم الأسرار الذي هو على نحو ما وراء متناول الإخبار، «عالم الفطرة السليمة الموضوعي» و«الرؤية الخاصة». كان مشدوداً بين عالم القصة الرمزية وعالم الرمز. وذلك، كما يقول فيدلسون، «لأنه في طبيعة القصة الرمزية، من حيث هي نقيض الرمزية Symbolism، أن تسلّم بمسألة الحقيقة المطلقة. فالقاص الرمزي يفيد نفسه من تطابق شكلي بين «الفكر» و«الأشياء» التي ينظر إلى كل منها بوصفه مفروضاً، ولا يحتاج إلى أن يتحقق مما إذا كان أيّ منهما «حقيقياً» أو مما إذا كانت الحقيقة، في التحليل النهائي، تتشكل في تفاعلها»⁽⁴⁾.

أما كيف حسم هورن بانتصاره، في أحسن عمله، «هذا الصراع الموهن - بين الرمزي والقاص الرمزي» (ص 14) - فليس جزءاً من موضوعنا. وما هو مهم لغرضنا، هو أنه مثال من الأمثلة - في عمل فنان عظيم - للتعارض العميق بين الأشكال القصصية الرمزية والأشكال الرمزية للفكر. ومثلما كان عند هورن، كان عند كولريدج. كان مستحيلاً بالنسبة إلى كولريدج، في تعاطفه مع وحدة إدراك العالم، أن يسلم بـ «تطابق شكلي» صرف بين «الفكر» و«الأشياء». ولا ينبغي أن يرسخ حقيقة كليهما لأن كليهما جزء من تجربته فحسب، بل إن الحقيقة بتأكيد أكثر تتألف من تفاعلها، فليس في استطاع كولريدج أن «يسلم بمسألة الحقيقة المطلقة».

ومهما يكن، فإنه تُعرض هناك نقطة علينا أن نفصل فيها عن فيدلسون في مناقشتنا. أما عند فيدلسون، فإن «المنهج الرمزي» الذي يتحدث عنه، هو أساساً ظاهرة آتية بعد الرومانسية post-Romantic - «أقرب إلى الانطباعات الحديثة عن الحقيقة الومزية منها إلى الذاتية الرومانسية» (ص 4). ومثلما يقول

(4) فيدلسون؛ ص 8.

عن وتمان، فإن «لا عقلانية الرحلة الرومانسية إظهار متعمد للشعور؛ والبحر الرومانسي صورة لعالم خاضع للانفعال... ومعاداة وتمان للعقل لها مصدر آخر أكثر تعقيداً من الرؤية الرومانسية لعالم مغمور بالشعور» (الصفحات 26-27). ومحقق أن هذا المقولب لـ «الذاتية» و«الشعور» الرومانسيين، يعكس أثارة من تعقيد الرؤية الذي كنا قد رأيناه عند كولريدج ووردزورث. وتتدفق رؤيتهما من «معين أكثر تعقيداً» من هذا - والحق من معين ليس أقل سموّاً من الخيال، الملكة الصانعة للرمز، التي «تشغل النفس الإنسانية كلها». ومهما يمكن أن يقال عن هوثرن وتمان، فما لدى كولريدج ووردزورث هو بدقة صيغة رمزية للإدراك تجعل منها رومانسيين. وما سوى ذلك من رومانسيتهما، ذاتيتهما، إلحاحهما على الشعور، حرّيتهما - يُصنّف تحت الصيغة الرمزية.

ومهما يكن، فإن ما يفعله فيدلسون لنا، إنما هو تحديد أهمية الاختلاف الذي يصرّ عليه كولريدج بين القصة الرمزية والرمز. لقد تكلمنا كثيراً على الرمز؛ وقد آن أوان الحديث عن القصة الرمزية.

ثمة باعث مسلّم به لدرجة ما من الارتباك فيما يتصل بأراء كولريدج حول القصة الرمزية. وليست الصعوبة في تصوّره لمعناها؛ ففكرته عنها، التي أعطيت أوضح صيغة لها في إحدى محاضراته سنة 1818، رائعة جداً:

«وهكذا يمكن أن نحدّد التأليف القصصي الرمزي باطمئنان بأنه استخدام مجموعة أدوات وصور في أفعال ومكملات مطابقة، بحيث تنقل، في الخفاء، إما صفات أخلاقية وإما تصوّرات عقلية ليست هي نفسها موضوعات للإدراك الحسي، وإما صوراً أخرى، وأدوات، وأفعالاً، وأقداراً، وأحداثاً، بحيث إنّ الاختلاف يُعرض في كلّ مكان للعين أو الخيال بينما التشابه يسوحى به إلى العقل؛ ويتمّ هذا على نحو مترابط حيث تتألف الأجزاء لتشكّل كلاً متماسكاً»⁽⁵⁾.

(5) المحاضرة 3 لسنة 1818، في «النقد المتنوع عند كولريدج»، طبعة توماس مدلتون رايزور (كيمبردج، ماساشوستس، 1936)، ص 30.

وتأتي الصعوبة من حكم كولريديج بشأن القصص الرمزية الفردية. فقد ظلّ، حيث قرّر أنّ القصة الرمزية شكل شعري ضعيف، أمام مشكلة ما يمكن أن يُقال عن الشعراء العظماء الذين يُعتقد عموماً بأنهم قاصّون رمزيون، شعراء من قبيل دانتي، وسبنسر، وبنيان. لكنّ حلّه هو السداجة نفسها؛ فهؤلاء الشعراء عظماء رغم حقيقة أنهم قصاصون رمزيون أحياناً، وهم قصاصون رمزيون، أكثر قليلاً غالباً مما نفترض. فحيث يكون فُهم أكثر نجاحاً، يكون في مقدورنا بحجور أن ننسى أنّه قد يكون قصة رمزية: «إذا ما كانت الشخصية في القصة الرمزية متميّزة جداً بحيث تثير اهتمامنا، فإننا نحجم عن أن ننظر إليها بوصفها قصة رمزية؛ وإنّ هي لم تثر اهتمامنا، فمن الخير أن تُهمَل» (ص 31). وفي «تلك القصة الرمزية الرائعة، القسم الأول من رحلة الحاج Pilgrim's Progress، الذي يروق الناس جميعاً» يستطيع أن يصرّ على أنّ «التشويق كبير جداً بحيث إنّ الكاتب - رغم محاولاته فرض هدف القصة الرمزية على عقل القارئ من خلال أسماؤه الغريبة؛ الغباء القديم لدروة الشرف، إلخ، إلخ. - تغيب عبقريته ورعّه، ويتغلب بُنيان بارناسسوس Parnassus على بُنيان دار العبادة» (ص 31). أما بشأن سبنسر، فإنّ «أكثر الأجزاء، بلادةً ونقصاً لديه، تلك الأجزاء التي نُضطرّ فيها إلى النظر إلى أدواته بوصفها قصصاً رمزية» (ص 31).

أما تناول كولريديج لدانتي بوصفه قصاصاً رمزياً allegorist فمختلف إلى حدّ ما: إنّهُ ببساطة، إنكار لأن يكون دانتي حقاً قصاصاً رمزياً البتّة. «الكوميديا الإلهية منظومة من الحقائق الأخلاقية والسياسية واللاهوتية، مع تمثيلات شخصية اعتباطية، ليست، في ما أرى، مجازية»⁽⁶⁾. وابتغاء فهم رأيه في دانتي، علينا أن نرجع قليلاً إلى المحاضرة نفسها. ويقول كولريديج إنّ النهاية كانت، بالنسبة إلى الإغريق، الشكل المتناهي. وأما في المسيحية فالعكس هو الصحيح. «إنّ المتناهيات، حتى الشكل الإنساني، ينبغي ابتغاء إرضاء العقل

(6) المحاضرة 10 لسنة 1818، في «النقد المتنوع»، ص 150.

أن توضع على اتصال «بالمطلق»، وأن تكون في الواقع رامية له. وقد تمخض عن هذا «نتيجتان عظيمتان؛ دمج للشعر بالعقيدة، ثم دمج الشعر بالعاطفة، وذلك بتوجيه العقل باطناً إلى جوهره بدلاً من تركه يعمل وفق ظروفه وبمجموعاته الخارجية فحسب» (ص 148). وهاتان «النتيجتان العظيمتان» هما اللتان لا تجعلان دانتي قاصاً رمزياً أساساً. أما ماذا يكون دانتي في نظر كولريديج، فربما سيأتي واضحاً في مجموعة عبارات من دراسة كولريديج خاصيات شعر دانتي. «الصور عند دانتي لا تؤخذ فحسب من طبيعة واضحة، وهي مفهومة عند الجميع، بل تُضمّ دائماً إلى الشعور الشامل المُتلقّى من الطبيعة، ومن هنا تثير المشاعر العامة للناس جميعاً» (ص 152). وكذا «لا يسمو دانتي بفكركم حين يغوص بها إلى الأعماق» (ص 152). وكذلك: «هكذا يأخذ آلاف الصور الخادعة لطبيعة أكثر سوءاً من العناء Chaos، صوراً لا حقيقة لها إلا من خلال العواطف التي تثيرها، ويجعلها في خدمة الأبدى» (ص 155). وجليّ أنّ دانتي، عند كولريديج، ليس شاعر قصص رمزي بل شاعر رمزي لا يتاجر بالشواهد والمحددات بل بالغموض.

سيكون من الحق أن ننكر قصرَ نظر كولريديج في ميدان القصة الرمزية. وواضح أنّ نفوره من القصة الرمزية ينشأ عن انشغال بالتأثيرات المؤذية للقصة الرمزية السيئة: عمل الوهم الصرف والفهم الآلي. ولعلّه من سوء الحظّ أنّ هذا النفور آل به إلى رفضٍ مُتَعَجِّلٍ للقصص الرمزي ككلّ؛ ولو أنّه استطاع أن يميّز بين جيّد القصص الرمزي وروديته، لأتّيح لنقده أن يظفر بكلّ ما هو ثريّ. والحقّ أنّ محاولاته توضيح عناصر القصص الرمزي لدى الشعراء الذين شغف بهم، تبدو أكثر من مضحكة.

ومهما يكن، فإنّ هذا القصور في نشاط كولريديج لا ينبغي أن يؤذّن له بالوقوف في طريق تقدير دقيق لتمييزه بين القصة الرمزية والرمز. ومع ذلك، فهناك من قد فعلوا ذلك. ونجد إدون هونغ في «In Dark Conceit: The Making of Allegory» يقول عن كولريديج: «وبوصفه مصدراً رئيساً

للمعارضة الحديثة لمفهوم القصة الرمزية، ربما يكون مسؤولاً عن إثارة عددٍ من التمييزات المتحدقة بين المذهب الرمزي Symbolism والقصة الرمزية؛ لأنَّ تشدداته في الموضوع أخذت بحرفية مسرفة أو أسوء استخدامها⁽⁷⁾. ونقيض هذا موجود أيضاً؛ إذ كثيراً ما كان عدم أخذ آرائه بشأن الرمز بدقّة كافية مبعثاً لسوء فهمه.

على أنّ ثمة نزعة مضادة للرومانسية anti-Romanticism في فكرة هونغ - وهي ذات صلة بعيدة بالشكل الأكثر اعتدالاً لدى فيدلسون - أكثر من إزعاج ضئيل: «وبسلطة الكهنوت الاجتماعي تحت الربّ، استبدل الرومانسيون هيئة كهنوت جمالي مستندٍ إلى امتيازات إنسان الشعور، واللاأخلاقي، والفنان، ومدّعي الإيمان. استطاع الرومانسيون بسهولة أن يرفضوا ربّ الناس لمصلحة ربّ للحبّ، طبيعة حانية، أو شيطان المطلق. وبدلاً من المسيحي الكادح التائق إلى مكافآته السماوية بتقليده حياة المسيح عند بنيان Bunyan، أوجدوا ذاتياً رهيباً أحبّ بشغف المرأة، أو المعرفة، أو القوة، أو الحرية أكثر من العالم، وحين حبط عمله التمس إفقاره بانتحاره...»

«... وهم، إذ صرفوا النظر عن أنظمة موصوفة للتفسير البدهي، شرحوا الخلاصة النفسية أو الأسطورية التي فسّرت الخلق الفني بوصفه فعلاً أصيلاً ومكتملاً بنفسه» (الصفحات 40-41).

ومهما يمكن أن يقال عن هذا بوصفه فكرة موجزة عن «الرومانسيين» - تكشف بوضوح تبسيطات آية خلاصة لحركة معقدة من هذا القبيل كالرومانسية - فإنّ ما هو مُقلق في هذا الشأن خاصة، أنّ كولريدج، في سياق كتاب هونغ، هو الذي يُرى بوصفه المفتاح لذلك كلّ. إنّ كولريدج نفسه لا محالة، من حيث هو الوسيط لكانط ولمواقف كانط وقيمه. وما هو حاسم لدى كانط بالنسبة إلى الرومانسي هو «التشديد على ذاتية التجربة كلّها». ويمضي هونغ قائلاً «لأنّ كانط، خلافاً لأفلاطون وأرسطو، لا يقول إنّ الشيء المهمّ هو الطبيعة بوصفها

(7) الإدراك البهم Dark Conceit: صناعة القصة الرمزية (نيويورك، 1966)، ص 44.

رمزاً لقدرة الله، بل هو قدرة الإنسان الفرد على تبين الجميل وإدخال السامي في فكرة الطبيعة» (ص 43).

وسيكون مضحكاً أن ننكر الآثار الكانطية الواضحة في الرومانسية الإنكليزية، لكن استحضار اسم كانط ليس تفسيراً للظاهرة المعقدة المتمثلة في الرومانسية. ولعل هذا التوضيح ضروري خاصة في حال كولريديج. ولا مرء في أننا ربما نقر بفضل كانط على كولريديج، مثلما يفعل هو نفسه بوضوح تام في «السيرة الأدبية»، من دون تحويل لكولريديج إلى كانطي. على أن التعارض الذي قرره هونغ بين أفلاطون وكانط - صحيح رغم أنه هو نفسه - غير مناسب في صدد كولريديج خاصة، والحق، في صدد الرومانسية الإنكليزية عموماً. ورغم تأثير ذاتية كانط، يظل كولريديج - ومعه في تلك المسألة معظم الرومانسيين الإنكليز - أفلاطونياً أكثر كثيراً منه كانطياً. وينبغي أن يكون واضحاً تماماً الآن أن عمل الخيال - الذي يتمثل في صناعة الرمز - لم يكن لدى كولريديج (بتعبير هونغ): «فعالاً أصيلاً وقائماً بنفسه» فحسب، بل هو فعل انفتاح قوي على الحقيقة فائق على قدرة النفس. ويحقق هونغ، على غرار شراح آخرين كثيرين جداً، في إدراك الاختلاف الحاسم بين كانط وكولريديج في طبيعة الأفكار وحقيقتها، ومن ثم في الرموز.

وابتغاء شرح هذا الاختلاف، علينا أن نستعيد، بإيجاز، موضوعاً أسدل عليه الستار نسبياً من قبل. الرمز عند كولريديج فكرة؛ رغم أن الفكرة بطبيعتها فوق الحس، وهي في الرمز تجسّد في صور حسية. وينشأ الرمز عن الفعل المشترك للعقل والإدراك. فالعقل (القدرة البشرية لما فوق الحسي) والإدراك (القدرة التي تعرف وفقاً للأحاسيس)، يعملان معاً تحت توجيه الخيال لإنتاج الرمز. ومثلما يقول كولريديج في «السيرة الأدبية»، فإن «الفكرة an Idea في أجل معنى لتلك الكلمة، لا يمكن أن تُنقل إلا بالرمز»⁽⁸⁾. لقد رأينا التعريف الكلاسيكي للرمز في The Statesman's Manual. وفي معرض إشارة كولريديج

(8) «السيرة الأدبية Biographia Literaria»، 1، 100.

إلى المظاهر البشرية في الكتاب المقدس - «تاريخ الناس»، «تأثير العقول المتميزة»، «السلوك الأخلاقي القومي والعادات الوطنية» - يقول عنها إنها «المستنبطات الحسية للخيال»؛ لتلك القوة المؤلفة والوسيلة، التي - بدمجها العقل في صور الإحساس، وتنظيمها (إن جاز القول) تدقق الأحاسيس بإدامة طاقات العقل وإدارتها ذاتياً - تولّد منظومة من الرموز، متناغمة في ما بينها، ومشاركة في الجوهر مع الحقائق، التي هي الموصلة لها... وتقدّم لنا محتوياتها تيار الزمن المتصل على أنه الحياة ورمز السرمديّة⁽⁹⁾. أما الحقائق فوق الحسية التي يعرفها العقل فيمكن أن تُجسّد «في صور للإحساس» فحسب لأنّ الاثنين من الجوهر نفسه. ويشاطر عالم الحقيقة المتعالية - عالم الفكر - في تماثل الوجود عالم الأشياء الزائلة المحسوسة. والسرمديّ والزائل، والمثاليّ والمحسوس، مشتركة في الجوهر. وهكذا يمكن أن يميّز الاثنان، بطريق الرمز، في فعل واحد للإدراك؛ لأنّ الرمز (في الشاهد المألوف الآن) «يُميّز بوساطة شفافية الخاص في الفردي أو العام في الخاص أو الكوني في العام، وأكثر من كلّ شيء بوساطة شفافية السرمديّ من خلال الزائل وفيه. وهو دائماً يشارك في الحقيقة التي يمثلها بوضوح، وبينما يعلن الكلّ يبقّي نفسه جزءاً فعالاً في الوحدة، التي هو ممثّل لها»⁽¹⁰⁾.

وهذا كلّهُ بونٌ شاسع عن ذاتيّة كانط. إذ عند كانط أنّ كلّ فكر الإنسان مما وراء التجربة الحسيّة الصرفة (سواء أكانت فكراً متعالية مستمدّة من العقل الصّرف أم فكراً للعقل العملي) تظلّ منظّماً، أداة لتنظيم تجربة الإنسان في العالم فحسب. ولا يمكن القول إنّ الإنسان «يعرف» حقيقة وراء نطاق النفس، لا من خلال محدّدات التجربة المحسوسة (المكان والزمان)، ولا من خلال الفكر. ومن وجهة ثانية، ليست الفكر، ومن ثمّ الرموز، عند كولريدج مجرد منظّم، بل مؤلّف أيضاً. ولأنّ الرموز من نفس جوهر «الحقائق التي هي الموصلة لها»، ما

(9) «كتيب رجل الدولة The Statesman's Manual»، ص 29.

(10) المرجع نفسه، ص 30.

نراها توصل إدراكاً صادقاً ليس للنفس فحسب، بل لحقيقة ما وراء النفس، للحقيقة فوق الحسية (لأنها تستدعي عمل العقل) والحقيقة المحسوسة (لأنها تصنف تحت مبدأ عام أيضاً عمل الفهم). وليست الرومانسية، في منظور كولريديج على الأقل، ذاتية صرفة. وليست طريقة للشعور فحسب، بل طريقة للمعرفة. وليست طريقة لمعرفة النفس الإنسانية فحسب، بل طريقة لأية معرفة. ويمكن القصة الرمزية (ولنعد إلى عبارة تشارلز فيدلسون) «أن تسلّم بمسألة الحقيقة المطلقة» - مفترضة تطابقاً شكلياً صرفاً بين الفكر والأشياء - أما الرمز الصحيح، في المعنى الذي يراه كولريديج، فلا يمكن أن يفعل كذلك.

وينطلق بنا س. س. لوس، في «The Allegory of Love»، أبعد من ذلك قليلاً، حين يقول إن «الرمزية Symbolism أسلوب للتفكير، أما العصة الرمزية Allegory فأسلوب للتعبير»⁽¹¹⁾. وتبين ما يقصد إليه يستدعي منا مرة أخرى الرجوع بضع خطوات إلى الوراء:

«إنه من صميم طبيعة الفكر واللغة أن يمثلاً ما هو غير مادي في عبارات مصورة... وهذا التكافؤ الأولي بين غير المادي والمادي يمكن أن يستخدمه العقل في طريقتين... فمن الوجهة الأولى يمكنك أن تبدأ بحقيقة غير مادية، من قبيل العواطف التي تعانيها فعلياً، وتستطيع عندئذ أن تبتدع مرثياً للتعبير عنها. وإذا ما كنت متردداً بين ردٍ غاضب وإجابة ليئة، فإنه يمكنك أن تعبر عن حالك العقلية بابتداع شخصية تدعى Ira ومعها مشعل ثم تركها تناضل شخصية أخرى مبتدعة تدعى Patientia. وهذه قصة رمزية... لكن ثمة طريقة أخرى لاستخدام التكافؤ، هي تقريباً نقيض القصة الرمزية، وسأدعوها السرانية Sacramentalism^(*) أو الرمزية Symbolism. وإذا ما كانت عواطفنا، وهي غير المادية، يمكن أن تصوّر بمبتدعات مادية، فإن عالمنا المادي يمكن إذن

(11) القصة الرمزية في موضوع الحب The Allegory of Love: دراسة في تقليد العصور الوسطى، (نيويورك، 1958)، ص 48.

(*) تعني الإيمان بالطقوس أو الأعمال أو الأشياء الخاصة بالأسرار المقدسة أو اصطنائها، وخاصة الإيمان بأن الأسرار المقدسة ضرورية للخلاص (المترجم - انظر المورد: 1986).

أن يكون أيضاً نسخة لعالم غير مرئي . . . ومحاولة قراءة أن شيئاً ما هو شيء آخر من خلال محاكيات محسوسة، ابتغاء رؤية النموذج الأصلي، هي ما أقصد إليه بالرمزية أو السرّانية» (الصفحات 44-45).

الرمز «صيغة للتفكير»، التفكير بطريقة إنسان ما ضاربة الجذور في ما هو حقيقي. ويتطابق هذا على الرومانسية، ربما ينبغي علينا أن نبادر إلى إضافة أن «النموذج الأصلي» الذي يحاول الشاعر الرمزي أن يراه، ليس نموذجاً أصلياً أفلاطونياً صرفاً في العالم المفهومي، عالم «الفكر الإلهية». ولا يستبعد الشاعر الرومانسي - وكولريدج أقل الرومانسين جميعاً استبعاداً لذلك - إمكانية مثل هذه الرؤية. لكن «النموذج الأصلي»، عند الرومانسين ينبغي أن يُضمّن النموذج الأصلي الداخلي أيضاً، النماذج الأصلية للنفس، وكذا النماذج الأصلية للسرمدية. ولا شيء مستبعد من بحث الشاعر الرمزي، وما هو مهم هو أنه يبحث دائماً عن حقيقة عميقة ورحبة، والرمز هو طريقة بحثه. ومثلما يقول لوس فإن «الاختلاف بين الاثنين لا يمكن أن يشتط به. ويدع القاصّ الرمزي المعطى - عواطفه الخاصة - ليتحدث عن شيء مسلم بأنه أقل حقيقة، عما هو تخيل. يدع القاصّ الرمزي المعطى ليجد ما هو أكثر حقيقة» (ص 45). ونحن لا نشوّه فكرة لوس بصرفها عن سياقها في العصور الوسطى، ذلك أنه يتابع القول: «لكن شعر الرمزية، طبعاً، لا يجد تعبيره السامي في العصور الوسطى البتّة، بل، على العكس، يجده في زمان الرومانسين» (ص 46).

وقد أعادنا س.س. لوس، أيضاً، إلى الطبيعة المقدسة للرمز. وتتأق مشكلة إدون هونغ - في إيجاد تمييز لكولريدج بين القصة الرمزية والرمز، وهو تمييز «متحلق» على نحو صرف - من قصوره عن فهم الطبيعة المقدسة أساساً للرمز في تفكير كولريدج. وهو يختلف جداً عن مسألة تناول كولريدج بحرفية صارمة؛ بل على العكس تتأق المشكلة من عدم تناوله بحرفية كافية. فكولريدج يعني ما يقول: يشارك الرمز بحق في الحقيقة التي يمثلها.

وقد يسأل المرء حتى عما إن كان البروفيسور أبرامز يحسب حساباً كافياً لهذا

المظهر المقدس للرمز الرومانسي. وفي سياق مؤلف أبرامز Natural Supernaturalism لا فكرة مقدسة حقاً عن الحقيقة ممكنة بالنسبة إلى الرومانسيين. وقد اتسعت شقة عميقة جداً بين الحقائق المسيحية القديمة والميتافيزيقا الدنيوية الجديدة؛ ذلك أن «المفاهيم والأنماط المميزة للفلسفة والأدب الرومانسيين هي لاهوت مُستبدل ومُعاد التشكيل، أو شكل آخر «مُعَلَّم» للتجربة التعبُدية»⁽¹²⁾. ولا مكان للرمز في عالم كهذا حسب إدراك كولريدج. يمكن أن يكون هناك قصة رمزية - تماثل مُتخيل بين عوالم يمكن أو لا يمكن أن تكون حقيقية - لكنه لا يمكن أن يكون هناك رمز، لأنه ليس هناك تماثل حقيقي للوجود. إن كولريدج هو ما يهْمنا أولاً، وتطبيق أبرامز فكرته على كولريدج متساوق: «ذلك أن كولريدج، الذي كان منذ مرحلة رشده مسيحياً مؤمناً، خاض معركة استمرت طوال حياته لحماية ما بدا له حذاً أدنى متعذراً إنقاصه من العقيدة المسيحية داخل نظام ميتافيزيقي دنيوي أساساً» (ص 67). ويتوارى تحت هذا الحكم رفض للتسليم بأن «نظام» كولريدج هو النظام الذي جعله كولريدج، غير شلنغي، ولا كانطي، بل كولريديجي. ويواجهنا، ثانية، ميراث ربنه وبلك، الذي ما كان قادراً على إعطاء كولريدج الحرية التي يقدم بها لأجداده الألمان العظماء ما قدّموه هم لأجدادهم - مظهر جديد نسبياً ليس لديهم. وفي رأي كهذا ينبغي أن يظلّ الفكر الألماني دائماً ككتلة غير مهضومة في معدة كولريدج.

وجلياً أن جدالنا طوال هذه المقالة كان شيئاً آخر: ذلك أن كولريدج كان قادراً على أن يطوّر، هذا إن لم يصنّع تماماً، هيكلًا فكرياً متناسكاً جملة، هيكلًا هو في الوقت نفسه ديني ودنيوي، أيًا كانت نقائصه في التصوّر والصيغة. والحق أن هذا تماماً هو العمل الذي أدّاه الرمز في فكر كولريدج: إيلاف الأضداد، أو ما تبدو أنها أضداد، بما فيها الدنيوي والديني، الزائل والسرمدّي. وكلّ حقيقة

(12) م. هـ. أبرامز، مذهب ما فوق الطبيعة الطبيعي Natural Supernaturalism: التقليد والثورة في الأدب الرومانسي (نيويورك، 1971)، ص 65.

متحدة في الجوهر مع سائر الحقائق الأخرى - ذلكم هو الغموض الأساسي .

وليس كولريديج وحده من يعاني من فكرة الهوة السحيقة بين الطبيعي وما فوق الطبيعي . فكارلايل ، الذي استمدت منه عبارة «ما فوق الطبيعة الطبيعي natural supernaturalism» ، صوّر هو نفسه إنسانياً في الجوهر . ولست إخال مع ذلك أن قراءة أبرامز وفيّة لـ Sartor Resartus . وفي فصل للدكتور تيوفيلسدروخ Teufelsdröckh موسوم بـ «ما فوق الطبيعة الطبيعي» يتحدث كارلايل عن المعجزات بوصفها الغارة التقليدية للمملكة الإلهية على البشري ، لما فوق الطبيعي على الطبيعي . وبانشغال الإنسان بالمعجزات فوق الطبيعية ، أعمى نفسه حتى عن أعظم المعجزات اليومية المحيطة بنا في عالم الطبيعة : «إن المعجزة الحقيقية التي أوحى الله بها إلينا والتي يعزّ تفسيرها تكمن في هذا ، أنني أستطيع أن أمدّ يدي كيفما شئت ؛ وأنّ لديّ قدرة حرّة على أن أمسك بها أيّ شيء شئت»⁽¹³⁾ . وليست النقطة الأساسية أن الطبيعي وما فوق الطبيعي متباعدان ، وأنّ الإلهي والبشري لم يعودا منسججين ، وأنّ الله لا يجليّ ذاته ، بل الأمر نقيض هذا تماماً . النقطة الأساسية أنّ الله يجليّ ذاته برحمة وحبّ أكثر حتى بما أذن الإنسان لنفسه أن يعتقد . «أرايت إذا أنّ هذا الكون الجميل ، حتى في أكثر أصقاعه ضعّة ، هو مدينة الله المقيّة بالنجم في صنيع واحد لا يتغير ؛ وأنّه في كلّ نجم ، وفي كلّ ورقة عشب . وأكثر من ذلك كلّ في كلّ روح حيّ ، لا ينفكّ لآلاء الحضرة الإلهية يسطع . لكنّ الطبيعة ، التي هي رداء الوقت لله ، والذي يجليّ للحكيم ، يخفيها عن الأحق»⁽¹⁴⁾ . وجليّ أنّ الله غير غائب عن هذا العالم ؛ فهو ، كما يقول كارلايل ، «الله الحاضر» .

وحقّي السرّز نفسه يقع تحت التفحص السديق من جانب البروفسور

(13) توماس كارلايل : Sartor Resartus : حياة السيد تيوفيلسدروخ وآراؤه ، طبعة تشارلز فريدريك هرولد (جاردن سيتي ، نيويورك ، 1937) ، الكتاب الثالث ، الفصل الثامن ، ص 262

(14) «Sartor Resartus» ، الكتاب الثالث ، الفصل الثامن ، ص 264 .

نيوفيلسدروخ، وصفحاته عن الرمز كولريديجية على نحو مثير للإعجاب، سواء في المحتوى أم في الروح: «أما في الرمز التام، فإن ما نستطيع أن نسميه رمزاً، في أي وقت، وعلى نحو واضح ومباشر تقريباً، هو شيء من الكشف والتجسيد للمطلق؛ فالمطلق معدّ لدمج نفسه في المتناهي، ليعبر للعيان، وإن جاز القول، ممكن الوصول إليه هناك... . فما الكون إلا رمز كبير لله؛ كلاً إن كنت ستمتلكه، فهل الإنسان نفسه إلا رمز لله؟»⁽¹⁵⁾.

ويؤكد أبرامز، حيث يستشهد بعبارة كارلايل، لكنه يرجعها إلى الحركة الرومانسية، أن «الاتجاه العام كان، في درجات ونواح متباينة، تطبيع ما فوق الطبيعي وأنسنة الإلهي»⁽¹⁶⁾. ولكن، أليس غاية كارلايل - وكذا كولريديج - العكس تماماً: أن الطبيعي يُجعل فوق الطبيعة، والبشري يؤله؟ وينبغي أن يكون كلا الرجلين قد رأى أنه لا جديد حقاً في هذا. وليس الأمر قطعاً جذرياً لأية صلة بالماضي، بل عودة تخيلية إلى أرثوذكسية سابقة في العهد. أما عند كولريديج، فقد حدثت بتجسيد للمسيح؛ حيث العالم غداً مقدساً، رمزاً. وأما عند كارلايل، الذي كان ارتباطه بمسيحية مذهبية ضعيفاً، فقد كان العالم ما يزال مقدساً، وكان المسيح على الأقل شاعره الأسمى: «تهادى أورفيوسنا الأسمى في يهودا منذ ثمانية عشر قرناً خلت؛ وقد أسر لحنه السماوي، الذي ينساب في أنغام فطرية عذبة، الأرواح المفتونة للناس؛ وما يزال بلحنه العلوي الصادق، ينساب ويصمدح، مع أن ذلك يتم الآن بآلاف المصاحبات والسمفونيات الثرية، في قلوبنا جميعاً؛ ويتصرف فيها، ويوجهها إلهياً»⁽¹⁷⁾.

أليس ممكناً أن الإلهي لم يكن مُفتقداً تماماً في المرحلة الرومانسية كما يمكن أن

(15) المرجع نفسه، الفصل الثالث، ص 220.

(16) «مذهب ما فوق الطبيعة الطبيعي Natural Supernaturalism»، ص 68.

(17) «Sartor Resartus»، الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ص 263. وربما يكون تعليق

ج. ب. تينسون في صميم الموضوع الذي نحن بصدده هنا. وهو يرى أن توجيه كارلايل ظل، رغم أنه لم يكن مسيحياً عقيدة، مسيحياً في جوهره «لأنه تصوّر قوةً علياً خارج المكان والزمان». انظر «Sartor "Called" Resartus» (برنستون، نيوجيرسي، 1965)، ص 318.

يعتقد المرء؟ - أليس ممكناً على الأرجح أنه قد «أعيد تحديد مكانه»، إن جاز القول، قد أعيد اكتشافه حيث يكون دائماً، في عالم الطبيعة وفي قلب الإنسان؟ - لقد عُرف الله المتعالي في القرن الثامن عشر حلاً في خلقه أيضاً وإذا ما كانت الحال كذلك، فإنه يمكن أن يقال إن ما قد ضاع ليس المعنى المقدس، بل هو مظاهر الوضوح البسيطة جداً لمعنى القصة الرمزية. وإذا ما وسّعنا معنى «مقدس» على نحو لا يعني فيه اللفظ معنى رمزياً للحقيقة، فوق الطبيعة فحسب، بل معنى رمزياً للحقيقة الداخلية للنفس أيضاً - أي مقدس في أوسع معنى للكلمة - أمكننا إذ ذاك تأكيد أن المعنى المقدس فعال جداً ليس بالنسبة إلى كولريديج وكارلايل فحسب، بل بالنسبة إلى سلسلة الكتاب الرومانسيين جميعاً.

وعلى الرغم من ذلك، يمكن أن يكون هناك معنى تكون فيه عبارة أبرامز صحيحة - في أن الإلهي قد «أنس». حيث يُضعف ما في القصة الرمزية من صور الوضوح الساذج، تاركاً الدين أكثر غموضاً، أكثر وفاءً لتحديدات الإدراك البشري. وعند كولريديج، ووردزورث، وبلليك، غموض كبير على نحو ما في المسيحية؛ أما عند آخرين، من مثل شلي وكيتس، فثمة غموض كبير في المقدس من التجربة البشرية نفسها. على أن هناك رمزاً في سائر الأحوال. هنالك دائماً إخلاص لغوامض تجربة البشر، وكذا إخلاص لرؤية الألوهية المجسدة، بالنسبة إلى المسيحيين منهم.

وطبيعياً أن مثل هذه الفكرة عن الرمز لا تحتاج، ولا ينبغي في الواقع، أن ترتبط بإحكام شديد بعقيدة مسيحية محدّدة عن التجسيد. فهي تعني أشياء مختلفة لشعراء مختلفين، كما أكد جيمس بولجر في بحث حديث⁽¹⁸⁾. وتتبع فكرة كولريديج عن الرمز من فكرة مسيحية عميقة عن الخلق. وينشأ الرمز، بعد كل شيء، عن الخيال الذي هو «تكرار في العقل المتناهي لفعل الخلق الأبدي في الكون المطلق»⁽¹⁹⁾. لكنّه في «الشعر الرومانسي الأسمى» كلّهُ، هناك دائماً على

(18) جيمس د. بولجر: «كولريديج في الخيال الذي زار ثانية» Coleridge on Imagination Revisited، حلقة وردزورث The Wordsworth Circle، 4، (1973)، 24-13.

(19) «السيرة الأدبية» Biographia Literaria، 1، 202.

أقلّ تعديل «كفاح لجعل الأشياء مثاليّة وتوحيدها»، وهو ما «يفضي إلى شعر اللحظة المبدعة، التبصّر الخاصّ للروح، الذي يُعبّر عنه في رموز الطبيعة التي تتوسط من خلال إشراك السروحي أو المقدّس وكذا المادي في قسوة خيال الفنان»⁽²⁰⁾. وتتضمّن هذه، على سبيل المثال، «الرموز الطبيعيّة الكثيرة عند كولريديج التي تغدو رويّة، وتستوعب «الكون» الذي يعزّ على اللغة استيعابه. والدلالات مصطلحات غامضة لـ «الكون» - حضور، شيء، روح خالد، عزلة، عاطفة الوجود، وهلمّ جرّاً. وأدوات النقل هي الجبال، تماثيل منعزلة، أديرة خربة، صلبان، أناس معتوهون، وما شابه ذلك» (ص 21). على أنّ هناك مدّى واسعاً للإشارة في رموز الرومانسيين: فالـ «الكون I AM» الذي اعتمده كولريديج مؤخّراً، كون مسيحي على نحو دقيق، وكذا حاله عند وردزورث، على نحو مبهم. وأتجرّأ في ظنّ أنّ أفكار بليك الأساسيّة وصورة الوسيطة وثيقة الصلة بمثيالاتها عند كولريديج» (الصفحتان 21-22). أما عند الآخرين، فليس ثمة إشارة مسيحيّة خاصة، بل «إنّ استكشاف الروحي متماثل عند الرومانسيين الكبار جميعاً، ويُدار بواسطة الرمزية Symbolism» (ص 21).

وهذا «الاستكشاف للروحي» يمكن أن يأخذ عدّة صور: ترسيخ للإيمان، تلمّسات ولمحات للمقدّس داخل نفس الإنسان، مطامح إلى عالم مثاليّ وراء النفس، لمحات خياليّة للمقدّس في شخص آخر أو في سموّ الطبيعة. لكنّه، أيّاً كان الشكل الذي يأخذه، استكشاف ما يكون في آخر المطاف وراء متناول قدرة الكلمات أو قوّة المجاز الصرف. وحتى الرمز عاجزٌ عن أن يستولي عليه تماماً، وإن كان في مقدوره أن يباشر معانقته.

وإذا لم تكن هذه الرمزية Symbolism دائماً المقدّس المسيحي نفسه، ذلك الذي يشفّ عن الله الخالق - فكرة كولريديج عن «التكرار في العقل لفعل الخلق السرمدي في الكون المطلق» - فإنّها دائماً، على الأقلّ، المقدّس في التجربة البشريّة، منظوياً على تجربة الإنسان للروحي. وإذا لم تكن دائماً اللقاء المقدّس

(20) بولجر: ص 21.

لخفاء المطلق، فإنها على الأقل لقاء مقدس لخفاء أعماق نفس الإنسان، حيث يقيم الله أيضاً، على غرار ما يمكن أن يقول كولريديج.

إن ما كنا قد رأينا من شعر وردزورث وكولريديج هو انعكاس وتأكيـد لهذا كله. وشعرهما، في أحسن أحواله، «استكشاف للروحي» أساساً. ومثلما قلنا قبل، فإن صناعة الرمز عند كولريديج - وكذا إدراك الرمز - فعل ديني أصلاً. ولا يستلزم هذا دائماً ما سيدعوه اللاهوتي عملية الإيمان اللاهوتي. ولا شك في أنه يمكن أن يكون، سواء أكان ذلك تصريحاً أم تلميحاً، تعبيراً عن الإيمان بالوحيّة متعالية. لكنّه قد يكون لحظة للمقدس داخل أغوار النفس الإنسانيّة فحسب، أو طموحاً إلى عالم مثالي وراء النفس، أو لحظة كشف للروحي في سمو الطبيعة. ومهما يكن، فإنه يبلغ أوجه لا محالة في رؤية رمزية، لأنه بوساطة الرمز وحده يمكن «الروحي» المطلق أن يبين البتّة. و«الفكرة، في أسمى معنى لتلك الكلمة، لا يمكن أن تنقل إلا بالرمز».

وعلينا أن نضيف حالاً أن استكشاف الروحي الذي يُعبر عنه بالرمز هو في الوقت نفسه أكثر من استكشاف. إنه لقاء، بحث ناجح في مقياس ما سابقاً. و«الاستكشاف» كفاح لتبيان ما قد فهم سابقاً من دون كلمات - ما قد أحس به في العظام، ما قد حلم به، ما قد لمس في الكشف. الاستكشاف للكلمات، والكلمات للتعبير عن هذا «الأخر» الروحي. الاستكشاف لتبيان لقاء، لقاء مع المقدس، الذي حدث من قبل ولا يزال يحدث في الرمز وحوله.

لقد تحدّثنا كثيراً عن «اللقاء»، ومع ذلك فمصطلحات هذا اللقاء ربما لا تكون قد صارت واضحة دائماً. قد تكون هذه هي الحقيقة التي لا مفرّ منها، ما دام اللقاء يحدث على أكثر من مستوى واحد. فهناك اللقاء بين الشاعر والقارئ، الذي تكون القصيدة محرّضاً له وحفاً؛ والقصيدة هي في الوقت نفسه السبب العام والقوة المنشّطة للقاء. قلنا في ما سلف، إن اللغة الرمزية «اثنيّة»؛ ذلك أنها تثير فعل الإيمان والثقة في جزء من القارئ. وعلى غرار ما قد قال ل. س. نايتس، فإن الرمز «يستمدّ مدلوله من السياق: لكنّه، إن جاز

القول، يتشابهك مع السياق المقدم سياق كل تجربة حياتية مُحْكَمَة لشخص؛ والمعنى الكامل - القوة المولدة - يوجد بقدر ما يكون هذا على نحو ما - بعنف أو برقة - منفعلاً فحسب⁽²¹⁾. وتكون التجربة الرمزية، في أحد مستوياتها، لقاء بين تجربة الشاعر وتجربة القارئ. وإلى هذا المدى يكون ممكن التحديد: هذا الشاعر، هذا القارئ.

لكن ثمة لقاء آخر. فتجربة الشاعر هي نفسها غالباً لقاء بين نفسه والمقدس - «الأخر» الروحي - سواء اكتشف داخل نفسه أو خارجها. وفي لقائنا بتجربة الشاعر ومن خلاله نقابل الروحي أيضاً. ويكون هذا اللقاء الأولي جداً - كما اقترحنا - أقل قابليةً للتحديد حتى من لقاء الشاعر والقارئ. وهو المادة الخام نفسها التي تصنع منها القصيدة الرمزية.

وما دامت هذه الدراسة قد بدأت بفقرة مُستمدة من The Statesman's Manual يناقش فيها كولريدج الكتاب المقدس والطبيعة الرمزية للحقيقة المتصلة بالكتاب المقدس، وما دام الرمز في الكتاب المقدس قد كان عند كولريدج النموذج الأصلي للتمثيل الرمزي كله، فلن يكون من المدهش إن نحن سَمَّينا هذا اللقاء مع الروحي نوعاً «كتابياً» [نسبة إلى الكتاب المقدس] عميقاً من اللقاء. وقد لاحظ البروفسور أبرامز بوضوح أننا «لا نبذل اهتماماً كافياً إلى القدر والإلحاح اللذين لا تعكس معهما كتابات وردزورث ومعاصريه من الإنكليز اللغة والإيقاعات فحسب، بل التصميم، واللغة المجازية، وكثيراً من القيم الخلقية الأساسية في الكتاب المقدس أيضاً»⁽²²⁾. ويمضي بعد في توضيح شيء من هذا القصور بمناقشة كثير من هذه العناصر «الكتابية» في الشعر الرومانسي. لكنه عدا القيم الخلقية العامة، وعدا التصميم واللغة المجازية،

(21) «الفكرة والرمز: بعض إلهامات من كولريدج» في كولريدج: مجموعة مقالات نقدية Col-bridge: A Collection of Critical Essays، طبعة كاثلين كوبرن (إنجلود كلفز،

نيوجيرسي، 1967)، ص 116.

(22) مذهب ما فوق الطبيعة الطبيعي Natural Supernaturalism، ص 32.

وحتى عدا اللغة والإيقاع، لا يزال هناك بُعدٌ «كتسابي» عميق في الشعر الرومانسي. وهو ما يسمّيه إرك أورباخ «الخلفيّة».

يبدأ أورباخ كتابه الموسوم بـ «Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature» بمعارضة مشهدين، الأول، هو المشهد اللطيف في الكتاب التاسع عشر من الأوديسة، حين يكون أوديسيوس قد عاد إلى الوطن أخيراً، حيث تتعرّفه مدبرة المنزل العجوز يوركليا، التي كانت مربيته في الطفولة، من خلال ندب في فخذة. والمشهد الكامل، كما يعلّق أورباخ:

«... يجسّد ويقصّ بتردد وفي طريقة متروية. والمرأتان [بنلوب والعجوز] تعبران عن مشاعرهما في حديث مباشر ثرّ. ورغم كونها شاعر، مع مزيج ضئيل من النظرات العامة في شأن المصير البشري فحسب، يظلّ الارتباط الإغرابي بين الأجزاء واضحاً تماماً، وليس هناك من محيط مغشّى. وهناك أيضاً مكان وزمان لصفات منسّقة، ومنطوقة بوضوح تام، وموضحة بانتظام للأدوات، والمساعدات، والإيماءات؛ وحتى في لحظة التعرف المثيرة لا ينسى هوميروس أن يخبر القارئ أنه بيده اليمنى يمسك أوديسيوس المرأة العجوز من حلقها ليمنعها من التكلم، وأنه في الوقت نفسه يدينها منه بيده اليسرى. ويظهر الناس والأشياء، وقد رسمت معالمهم بوضوح، وزيّنوا بتألّق وانسجام، في عالم كلّ شيء فيه مُشاهد؛ وليست أقلّ وضوحاً مشاعر الأشخاص المستخدمين وفكرهم، حيث عبّر عنها تماماً، وظلت منتظمة حتى في حماسها»⁽²³⁾.

والنقطة الأساسية هي أنّ كلّ شيء في الواجهة. ومثلما يقول أورباخ فلن: «ما يقصّه هو، في الوقت الراهن، الحاضر وحده، وهو يملأ المرحلة وعقل القارئ تماماً» (ص 3). ليس هناك خلفيّة، كلّ شيء هو في الواجهة.

(23) المحاكاة: تمثيل الحقيقة في الأدب الغربي Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature (برنستون، نيو جيرسي، 1953)، الصفحات 1-2.

ويعارض أورباخ بين هذه القصة وقصة تضحية إبراهيم بإسحق (سفر التكوين 22). وعلى غير توقُّع وبخفاء، يدخل الله [كذا] المشهد، في موضع غير مخصَّص، وينادي إبراهيم. ولا يقدِّم لنا سبب لهذا النداء المفاجيء لاجتياز الامتحان الرهيب، ولا يبدو مهماً أن يقدِّم أي شيء من هذا القبيل. وما هو مهمُّ هو استجابة إبراهيم للمحنة الخلقية التي وُضِعَ فيها. يُقام برحلة، لكنَّه ليس هناك وصف يقدِّم - خلا التفاصيل التي يُحتاج إليها لإكمال القصة. وعلى غرار ما يقول أورباخ «في هذا الجوِّ، لا يمكن تصوُّر أنَّ أداة، منظرًا طبيعيًّا مرَّ خلاله المسافرون، أو الخدم، أو الحمار، ينبغي أن توصف، ذلك أنَّ أصلها أو سلالتها أو مادتها أو مظهرها أو استخدامها ينبغي أن توضح بلغة الشاء: فهي لا تسمح حتى بصفة: فهي خدم، وحمار، وخشب، وسكين، ولا شيء آخر، من دون صفة؛ وهناك موجودات لتخدم الغاية التي أمر الله بها، ومهما كانت في حسابات آخر، أو ستكون، فستظلُّ في ظلمة» (ص 7). أما القصة الكاملة «فتظلُّ غامضة ومفعمة بالخلفية» (ص 9).

ولأنَّ الكثير إنما يُوحى به إجماءً فحسب، هناك إحساسٌ في القصة «الكتابية» بحقيقة أخرى، «خلفية» مرتبطة على نحوٍ ما بقصة الواجهة الإضافية. والقصائد الهوميرية أكثر فورية. وثمة فرح عظيم في الفعل المادي، ويجد الشاعر سروراً واضحاً في جعلها ماثلةً لنا. وهناك معارك ومطارادات، ومآدب، ومباريات رياضية، وأعمال التدبير المنزلي اليومية - كلُّ أنواع التفاصيل المادية الممتعة جدًّا، والتي تحبُّ بنفسها. وبتصويرها بقوة كبيرة يجعلنا الشاعر نحبُّها أيضاً. ويواصل أورباخ القول: «الانتقاص الذي تكرر كثيراً، هو أنَّ هوميروس مدَّعٍ لم يحصل على طائل من قوَّة تأثيره، وأنَّه لا يحتاج إلى أن يقيم قصته على حقيقة تاريخية، وحقيقة قوَّة بنفسها؛ وهي توقعنا في أشراكها، ناسجة شباكها حولنا، وهذا ما يكفي. وهذا العالم «الحقيقي» الذي أوقعنا في شركه يوجد بنفسه، ولا يتضمَّن إلا نفسه، والقصائد الهوميرية لا تحجب شيئاً. . . ويمكن أن يُحلَّل هومر. . . لكنَّه لا يمكن أن يفسَّر» (ص 11). ولأنَّ القصة «الكتابية» توحى أكثر مما تقول، نلاحظ أنَّها تجذبنا إليها على نحوٍ مختلف. ولأنَّ خلفية ما

مائلة أمامنا دائماً، وبخفاء، تُغري بالتحرك إلى ما وراء حقيقة الواجهة لتبين
ونتعرّف حقيقة الخلفية الغامضة.

وما هو بين أيدينا ههنا طريقتان متباينتان تماماً لتمثيل الحقيقة في الفن. ومهما
يمكن أن يكون هناك من اختلافات بين الصيغة «الكتابية» والصيغة الرومانسية -
فإن أحد هذه الاختلافات سيكون لا محالة أن هناك اهتماماً أكبر كثيراً بالتفصيل
في الشعر الرومانسي - ويظل الشعر الرومانسي «كتابياً» أساساً في تمثيله للحقيقة؛
وهو، على الأقل، يوحى بها بقدر ما يُفصح عنها. ومثلما يُلاحظ هنز بولتزر في
العمل الرمزي لكافكا، فإن «الشقوق، والصدوع، والفروع المفتوحة، تشقّ
عن العمق وراء التفصيل الواقعي»⁽²⁴⁾. ويوجد الشعر الرومانسي في عالم ذي
حقيقتين: حقيقة الأمامية Foreground وحقيقة الخلفية background
الغامضة، التي يعزّ النماذ إليها أخيراً. وحقيقة الخلفية هذه هي ما كنّا قد
سمّيناه «الروحانية». وقد نقول عن «الروحي» الرومانسي ما يقوله أورباخ عن
القصة «الكتابية» حول إبراهيم وإسحق: «وبعيداً عن نشدان مجرد أنسانا
حقيقتنا الخاصة لبضع ساعات، كما هي حال هوميروس، فإن هذه القصة تشد
التغلب على حقيقتنا الخاصة: علينا أن نكيّف حياتنا وفق عالمها، نشعر أنفسنا
بكونها عناصر في بنية تاريخها الشامل»⁽²⁵⁾. واللقاء الرومانسي بالروحي - سواء
أكان في الألوهية المتعالية أم في سمو الطبيعة أم في النفس الأولى - هو تحدّ
ومواجهة بقدر ما هو لقاء، على غرار الوعي «الكتابي» للخلفية المتعالية. ويقودنا
اللقاء الرمزي أحياناً، مثل البحار العجوز، نحو عوالم مخيفة داخل أنفسنا
وخارجها تتحدّى كوننا وتواجهنا بما يمكن أن نصير عليه.

وأحسب أننا لا ينبغي أن نفاجأ بأن الرومانسية كثيراً ما تُعاب، وغالباً ما
تُرفض بوصفها شكلاً من الشعور الصرف. وهي بعد كلّ شيء لا تعيد الشعور
إلى موضعه اللائق في التجربة الإبداعية. ومهما يكن، فإن ما يُغفل عنه غالباً،

(24) فرانز كافكا: Parable and Paradox (طبعة منقحة، إنكا، نيويورك، 1966)، ص 17.

(25) المحاكاة Mimesis، ص 12.

هو أنّ هذا الموضوع اللائق ليس بعيداً عن اللغة المجازيّة والعقل والإرادة. ولم يعد الشعراء «يفكرون ويشعرون على نحوٍ متقطّع، غير متوازنين». لقد صار الشعر «كُلّاً» مرّة أخرى. لكنّه طبيعي أنّ هذا يدعنا مع ضرب من الشعر أكثر صعوبة. وأقلّ صعوبة منه، على الجملة، أن نفهم شعر القرن الثامن عشر. فالفكرة والموضوع واضحيان، والشعور واضح. ونحن نعرف كيف أنّ الشاعر يريد منا أن نستجيب: فنحن نُحدّث لنضحك، لنبكي، لنشفق. ومهما يكن، فإنّ كون الفكر والشعور شيئاً واحداً يجعل المهمة أكثر صعوبة. ونحن لا نُحدّث بما ينبغي أن نجربّه؛ بل نوجّه فحسب، من خلال الرمز المعقّد، نحو التجربة نفسها. ولا نجد ثمة انفعالاً صرفاً، بل تجربة للشاعر نفسه، لغوامض العالم كما جربّه هو نفسه، وربما لأنفسنا نفسها.

وكثيراً ما يُقال إنّ الرومانسيّة تُميّز بمعنى جديد للحرية. ويتضمّن هذا طبعاً الحرية بوصفها موضوعاً - سياسياً، أو شخصياً، أو دينياً، أو أيّ شيء كان؛ يتضمّن حرية التركيب الأدبي، مع إذن بانفتاح جديد للشكل؛ ويتضمّن حرية الشاعر في التعبير عن الانفعال بطريقة شخصيّة عميقة. لكنّ الحرية التي لم تُلاحظ غالباً، هي الحرية التي تتأقّ تماماً من التجربة الرمزية. إنّها الحرية التي يعطيها الشاعر للقارئ. وما دمنا حقّاً نُوجّه إلى التجربة - لا يُقال لنا ما ينبغي أن نجربّه، كما في القصة الرمزية أو في شعر آخر للوهم - فإنّنا نترك أحراراً في أن نكون، وربما نجد، أنفسنا، وإنّها لحيّة لأكثر من لحظة قصيرة.

لكنّه إذا ما كان شعر الرمز الرومانسي يهبنا نعمة الحرية، فإنّ هذه النعمة ليست من دون ثمنها. وهذا الثمن هو طواعيتنا أن نعيش مع الغموض - غموض المعروف وغير المعروف، غموض المحدّد والمطلق، غموض عميق نفس الإنسان، غموض نفس الإنسان وأنفس الآخرين. وفي النهاية، يعطينا الرمز، مثلما يعطي الشاعر، الحرية الشاقة والجميلة للقاء أسرار الإنسان.

الفصل السادس

السِّيَاق الدِّينِي لِلرَّمْزِ

لقد صارت مشكلة الأشكال الرمزية للتعبير الديني مشكلة متكررة في اللاهوت، وقد ذهب اللاهوتيّ جون شيا John Shea حديثاً إلى القول إنه «حين لا تعود الأنظمة التفسيرية التقليدية للتجربة البشرية مُقنعة انفعالياً وتحريضياً، وحين تكون الرموز الموروثة قد صارت غير شفافة بدلاً من أن تكون مقدسة، وحين تبدو اللغة الدينية متحجرة بدلاً من أن تكون حديثاً وحيّاً، إذ ذاك يعود الإنسان إلى التجربة. وهنا يأمل أن يلقي الحقيقي بطريقة بدائية وملحة، وعلى هذا النحو يعيد تبرير حياته. وهو يريد أن يسقط البنى الفوقية السمجة للفكر التي يعتقد أنها قسّت حساسيته أكثر من أن تكون قد أرهفتها. يريد أن يغوص في تجاربه الخاصة، وأن يستكشفها، وأن يصغي إليها»⁽¹⁾.

وإذا ما كانت مشكلة الأشكال الرمزية تحتلّ حيزاً كبيراً في عقول اللاهوتيين اليوم، فإنها كانت كذلك أيضاً في القرن التاسع عشر. حتى إننا نجد لها قد أعطيت صيغها النهائية غالباً ليس عند اللاهوتيين وحدهم، بل عند الشخصيات الأدبية البارزة أيضاً. وثمة تشابه مفرع، مثلاً، بين الأسطر التي استشهدنا بها ترواً وبين مقطع من «السيرة الذاتية Autobiography» للسيد مارك رذرفورد

(1) «النجرية البشرية والسترميز الديني Human Experience and Religious Symbolization», The Ecumenist, 9, (1971), 49.

Mark Rutherford مسجلاً قراءته في مرحلة الشباب للقصائد الغنائية Lyrical Ballads. «ما نُقلتُ إليَّ عقيدةً جديدةً، لكنَّ التغيُّر الذي أحدثته فيَّ، رغم ذلك، لا يمكن أن يُقارن إلاً بذلك التغيُّر الذي يقال إنَّه قد أحدث في بولس نفسه بفعل التجلِّي الإلهي». ويقول إن وردزورث سيكون «الإنسان الأخير الذي يقول إنه قد فقد إيمانه برب آبائه. لكنَّ إلهه الحقيقي ليس ربَّ الكنيسة، بل ربَّ الهضاب...» ونتيجة لتأثير وردزورث، «عوضاً عن شيء من العبادة التي كانت حقاً مُتكلِّفة، وبعيدة، وغير داخلية في اتِّصال حقيقي معي، عندي الآن واحدٌ آمِنٌ أنَّه حقيقي، واحدٌ استطعتُ أن أعيش فيه وأتحرك وأمتلك وجودي حقيقةً، وتلك حقيقة واقعة ماثلة نصب عيني. الله God جيء به من سماء الكتب تلك، وعاش في التلال في الأبعاد القصية، وفي ظلِّ كلِّ غيمة دَوَّمت فوق الوادي. لقد فعل في وردزورث بعفوية ما قد فعله كلُّ مصلح ديني، - أعاد إليَّ ألوهيتي العليا، مستبدلاً الإله القديم بروحٍ جديد حيٍّ، عاش يوماً، ثم تحجَّر تدريجياً في وثن»⁽²⁾.

ولا ينبغي أن يكون مفاجئاً لنا أن اللاهوتيِّ والأديب ينبغي أن يفصحا عما هو أساساً المشكلة نفسها - تحجُّر الأشكال والحساسيات الدينية - وأن يقدموا أساساً الإجابة نفسها - العودة إلى التجربة البشرية. فقد يكون من المشكوك فيه الآن أنَّ التغيُّر الذي كنَّا قد رأيناه في شكل الإدراك والخلق الشعريِّين، يعتمد أساساً على تغيُّر عميق في الحساسية الدينية. وما الإدراك الديني للحقيقة يبعد عن أشكال الإدراك الأخرى عند الإنسان، فكُلُّها تعمل وفق قوانين العقل والخيال البشريِّين، وكلُّها تعمل داخل حدود لغة البشر؛ ولغة البشر - ولا نذكر شيئاً عن منظومة عقل الإنسان وأفق خياله - تتغيَّر دائماً. وما يجعل التغيُّر في الحساسية الدينية مهتماً على نحو خاص، أنَّ اللغة ههنا تُصَفَّى بقوَّة، والخيال يُفَحَّص بصرامة. إنَّ الإدراك والتعبير الدينيَّين هما اللذان يتطلَّبان تطلُّباً شديداً الوضوح

(2) وليام هيل وايت (مارك رذرفورد)، السيرة الذاتية لمارك رذرفورد The Autobiography of Mark Rutherford، الوزير المعارض (الطبعة الثانية؛ لندن، 1936)، الصفحات 21-23.

والإيجاء، لأنها يُصَفَّيان ليعانقا بعمقٍ ما هو واحد، وهو مع ذلك لا يبقى «آخر» فحسب، بل يبقى في النهاية متعالياً، وروحياً، وغامضاً.

وفي أواخر القرن الثامن عشر صارت «الرموز المتوارثة» - لا رموز الدين فحسب، بل رموز الشعر أيضاً - «غير شفافة بدلاً من أن تكون مقدسة»، وكانت هناك حاجة إلى فكرة «مقدسة» جديدة في العمل الشعري لجعل هذه الرموز مرة أخرى (ولنستخدم هنا كلمة كولريديج) «شفافية translucent». ويجوز القول، بتهكم، إنَّ عدم الشفافية هذا تأق من تنقية مسرفة في التعبير عن الاعتقاد الديني. ونحن نراها في كلِّ ظلٍّ للاعتقاد والشك - لدى مدافع مسيحي أرثوذكسي كالأسقف بتلر، ولدى متشكك مثل هيوم.

أمَّا بالنسبة إلى هيوم، فقد كان هناك نوع من التضخم في المسيحية، إسراف في البشرية، رأى أنه لا يمكن أن يُحمَّل. ولم يستطع هيوم، مثل كثيرين جداً من أهل ذلك القرن، أن يتحمَّل الغموض. ويربط الغموض في الدين الرسمي، عنده، بعجز الإنسان عن تصوُّر الله إلَّا بلغةٍ من نفسه. ويرى هيوم أنَّ الله منشغل دائماً بالهموم البشرية. وينبغي أن يُرى الله على نحو أكثر تجريداً، بعيداً عن الإنسان. منفرداً في عزلة رائعة. لكنَّه ليس في مقدور الإنسان أن يركِّز طويلاً على مثل هذا التجريد، مهما كان متألقاً؛ وهكذا ينشئ وسطاء بين الله وبينه، تغدو في النهاية أوثاناً، آلهة زائفة. وقد اعتقد هيوم أنَّ الإيمان بالله لا ينبغي أن يكون مقبولاً إلَّا إذا كان متحرراً من النزعة الفطرية primitivism، متحرراً من فجاجة الوسطاء والأسرار المقدسة، متحرراً من الإدراكات المشوَّهة للإنسانية العادية، متحرراً من ظلمة الغموض. ومثلما يقول باسيل ولي، فإنَّ هيوم ربَّما أجاب، «أوه فيها يتصل بالوحي!، لكن ليس، إن سمحت، الوحي الذي فُرض علينا أن نتلقاه من قبل»⁽³⁾. والحق أنَّ ربوبية

(3) خلفية القرن الثامن عشر: دراسات في فكرة الطبيعة في فكر المرحلة - The Eighteenth Century Background: Studies on the Idea of Nature in the Thought of the Period (بوسطن، 1961)، ص 135. وانظر أيضاً الصفحات 126-135.

deism مهذبة، ومكرسة لتأمل فكرة مجردة، ينبغي أن تكون كافية بالنسبة إلى هيوم، مثلما هي الحال بالنسبة إلى كثيرين في القرن الثامن عشر.

وردود الأفعال على الموقف الربوبي، التي وجدت لدى لاهوتيين متشددين مختلفين من مثل الأسقف بتلر ورئيس الشمامسة بالي، وكذا لدى أنصار للمسيحية أقل تشدداً من مثل هارتلي وبرايستلي، هي شيء ما أقل من مستجيب استجابة تامة. وأنه صحيح أن الأسقف بتلر، كما يشير باسيل ولي، «يبدو مدركاً الخلل الأساسي في ربوبية القرن الثامن عشر، أعني أنها تجعل الإنسان معياراً لكل الأشياء، ولا تحسب حساب العناصر الأكثر أهمية في التجربة الدينية - أعني تلك التي تستلزم اعترافاً بما هو ظاهر التناقض، وحتى باللاعقلية في صميم الأشياء، وطبيعي أيضاً بالتعالى أو «الآخريّة»؛ بالله لا من حيث هو عقل مؤله deified Reason فحسب، بل من حيث هو «كبير لا تدركه العقول mysterium tremendum» (الصفحات 83-84). ويبدو، ليس أكثر من أي من الآخرين، قادراً حقاً على الإجابة عن المسائل التي تثيرها. ربما تكمن المشكلة في اختيار حقل للمعركة؛ فقد اختار المدافعون المسيحيون عموماً - وكان ثمة استثناء عارض تمثل في وليم لو - أن يقاتلوا في ميدان الربوبي، العقل. أما كتاب بالي «شهادات للمسيحية Evidences of Chrestianity»، وهو أحد الكتب الدينية الأكثر تأثيراً في أواخر القرن الثامن عشر - فإنه يفقد قيمته حين يحاول أن يثبت ما لا يمكن إثباته أساساً، حقيقة المسيحية. وحتى الأسقف بتلر، المفكر الرفيع الثقافة، يعول بقوة على مناقشات العقل. وإذا ينشغل بتلر أساساً بحاكمية الله للعالم، في الأنظمة الطبيعية والأخلاقية معاً، يجب بلغة القانون. فهو قانون للطبيعة يمكن ملاحظته، غرسه الخالق، وقانون للضمير يمكن إدراكه، وقد طبع في قلوب الناس. وكلا القانونين يُقدّم للإنسان كي يُبصره بالطريق إلى الله.

هذا حقاً أحد الموضوعات الأساسية في فكر القرن الثامن عشر: يوجد الله في عالم الطبيعة - «السماء المرصعة بالنجوم» - وفي القانون الداخلي - النزعات

الخاصة في قلب الإنسان، لكنه ما الموجود حقيقة؟ - إنه، في الجملة، ليس الله بقدر ما هو قوانين الله. فما يوجد كامناً في الطبيعة ليس الله حاضراً، بل قانون الحكمة الإلهية. وما يوجد في «قلب الإنسان» ليس روح الله الساري كما يقول بذلك اللاهوت المسيحي التقليدي، بل قانون الضمير المخلوق (حسب تعبير بتلر)، أو هو (بعبارة هارتلي) «الشعور بالله theopathy» و«الحس الأخلاقي». وقد ترك الله آثاره في خلقه، لكنه غير موجود فيه. ويجد المرء نفسه مدفوعاً إلى القول إن هذه الآثار كثيراً ما «تشبه رسائل ميتة»^(*) ترسل / إلى أغرّ عزيز يعيش، واحسرتاه! بعيداً. وفي رأي كثيرين من مدافعي القرن الثامن عشر أن المسيحي ما يزال بعيداً تقريباً عن الله بمقدار بُعد الربوبي عن «الإله المجرد»⁽⁴⁾ عند هيوم.

طبعي أن تكون الاختلافات بين علماء اللاهوت والفلاسفة البندينيين في القرن الثامن عشر كثيرة، شأنها في كل عصر، لكن ثلاثة موضوعات متداخلة تتكرر بالحاح حين يقرأ المرء شفتسبري أو هيوم، أو هارتلي أو بتلر، أو برايسلي أو پالي. وهذه الثلاثة مترابطة بإحكام: قبل كل شيء، ما فوق الطبيعي المنفي

(*) الرسالة الميتة dead Letter. رسالة تُتلف في إدارة البريد، أو تُعاد إلى مرسلها، نسب بقصر أو خطأ في العنوان.

(4) «طبعي» أنه كان هناك استثناءات، مثلما يكون في أي عصر، من التيارات السائدة في الفكر والحساسية: كانت هناك قوى لاتعادي، مذهب العقلانية الربوبية deistic rationalism فحسب، بل تعادي عقلانية المدافعين المسيحيين أيضاً. وكان الأكثر أهمية مثل هذا التيار ظهور الميثودية Methodism. وكان لدى جون ويري John Wesley، كما يقول ستيفن برايك، «تأكيد متكرر للتجديد - حيث يوضح حلول الله في الطبيعة»: «كولريدج ووردزورت: شعر النمو Coleridge and Wordsworth: The Poetry of Growth» (كيمبردج، إنجلترا، 1970)، ص 105. وكانت الميثودية في بداياتها حركة عاطفة دينية شعبية أكثر منها حساسية شعرية، أو حركة تأمل لاهوتي. ولا تندو حتى الآن قد لأمست بعمق الحياة العقلية أو الفنية للطبقات العليا. ولم تبدأ الميثودية، حتى وقت متأخر من القرن، التأثير في الشعر واللاهوت في أية درجة ملحوظة، ثم وجدت بعد ذلك لدى شاعر مثل بليك، الذي ينتمي حقيقة إلى عهد متأخر، عهد الرومانسية. وقد بقيت الحياة العقلية في القرن الثامن عشر، رغم التيارات المعاكسة، عقلانية في الأعم الأغلب. انظر بشان ويري والميثودية. جيرالد ر. كراج، «Reason and Authority in Eighteenth Century» (كيمبردج، إنجلترا، 1964)، الصفحات 155-180. [المؤلف].

بقوة من عالم الطبيعة؛ والعقل يسود، والطبيعي وحده يمكن حقيقة أن يدرك. ثم هنالك النفور من الغموض - سواء أكان غموض الإثم، أم غموض الحرية، أم الغموض في تصور الله؛ فالغموض فوق متناول إدراك العقل، ولذلك لا ينبغي أن يُطمأن إليه. وهناك، أخيراً، تصور الله نفسه بوصفه الصانع الإلهي The Divine Artificer، الذي يطل من بُعد على العالم الذي أبدعه. وواضح أن النتيجة النهائية هي تفرُّع لمعنى المقدس، الروحي، «الآخر». إنه افتقاد للحضور، افتقاد لحضور المتعالي الحال في الأشياء، ومع هذا، هناك افتقاد للحضور الغموض الذي يشعر به.

وطبيعي أن نظرة العالم في القرن الثامن عشر هي نظرة علمية أساساً، نظرة حركة التنوير. إنها ليست لغة دينية فحسب تلك التي «تبدو حديثاً متحجراً بدلاً من المحادثة الوحيية»، إنها اللغة نفسها كل «الرموز المتوارثة» - التي قد «غدت غير شفافة». إن رغبة حركة التنوير، على الأقل من زمان لوك، كانت (على غرار ما يصفها روبرت لانغباوم) «فصل الحقيقة عن قيم تقليد منهار». ومهما يكن، فإنها عملياً «فصلت الحقيقة عن سائر القيم - مخلفة عالماً الحقيقة فيه كمية ممكنة التحديد، في حين أن القيمة من صنع الإنسان ومضللة»⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من ذلك، ومهما يمكن أن يكتب الفلاسفة وعلماء اللاهوت - وأحياناً الشعراء - فإن الإنسان يجرب القيم كثيراً بما فيها حضور الغموض. هناك، على نحو دقيق، المحور. هناك ثغرة بين كتابات الفلاسفة والشعراء، والحسيوات اليومية للناس. يقول لانغباوم: «إن عالماً كهذا لا يقدم تحقّقاً موضوعياً للإدراكات الصحيحة التي يحيا بها الإنسان، إدراكات الجمال، والخير، والروح» (ص 11) - إدراكات الغموض. لقد غدت الرموز المتوارثة غير شفافة؛ فثمة انفصال بين اللغة والتجربة.

ويمكن ألا تكون الإجابة سوى عودة من المجرد إلى المادي - ما تصوّر جون

(5) شعر التجربة The Poetry of Experience (نيويورك، 1963)، ص 11.

ستيوارت ملْ أنه استبدال تقليد لوك بتعليم كولريديج - عودة من الفكرة إلى التجربة الملموسة. وما احتيج إليه كان ثقة جديدة بكمال التجربة الإنسانية وباللغة التي نعبر بها عن التجربة. ويمثل فعل الثقة هذا فحسب، ولا شك أنه ضرب من الفعل الإيماني، يمكن للناس أن يتقبلوا حقيقة أن ما يمكن التحقق منه موضوعياً لا يستنفد مجال التجربة الإنسانية. ومن هنا الحاجة إلى الرمز، الذي في مقدوره أن يعبر عما يمكن إثباته موضوعياً - مادة العلم - وكذا ما يجد برهانه الوحيد في رغبة الإنسان والشعور الذي يحس به - الذاتي، والمثالي، والمقدس. ولعل روبرت لانغباوم يشير إلى هذه الحاجة نفسها حين يشير إلى أن الرومانسية - الاستجابة إلى هذه الحاجة - هي «مثالية وواقعية معاً، من حيث إنها تصوّر المثالي بوصفه غير موجود إلّا بالاتحاد مع الواقعي، والواقعي بوصفه غير موجود إلّا بالاتحاد مع المثالي. ولا يجتمع الاثنان في اتحاد إلّا في عملية الإدراك حين تأتي العقلانية العليا أو التخيلية بالمثالي إلى الواقعي من خلال اختراق وامتلاك للعالم الخارجي بوصف ذلك وسيلة لتعرف ذاتها ولتعرف العالم الخارجي معاً» (ص 24). وما يشرع الشعراء في السعي إليه هو: «تزامن الكلمة والتجربة» (ص 69)، الذي (سأضيف أنا) يستلزم في الوقت نفسه إدراكاً للحقيقة والقيمة. وحين يُحقّق هذا التزامن يتوارى عدم شفافية اللغة، وتحلّ محله شفافية الرمز. وحين يكون الرمز موجوداً، فإن اللغة والتجربة، الإشارة والمُشار إليه، الحقيقة والقيمة، تدرك معاً - مُضاءة بنور واحد - يرى كلّ منها في الآخر ومن خلاله. فالحقائق المختلفة - الواقعي والمثالي، الخاص والعام، الأنا والآخر، المادي والروحي - تدرك مجتمعةً في رؤية واحدة.

لقد تقدّم هذا قليلاً على الوقت الذي بدأت فيه العودة إلى تمام التجربة الإنسانية معالجة اللاهوت بعمق. فقد ظلت «الشهادات العقلانية لبالي Paley's rationalistic Evidences»، مثلاً، المتن الجامعي المُعترف به في علم السدفاع عن المسيحية apologetics في القرن التاسع عشر؛ ولم يظهر كتاب «قواعد التصديق Grammars of Assent» لنيومان، بتمييزه الشهير بين التصديق النظري والحقيقي، حتى عام 1870، أما كولريديج، رغم أنه الصوت الوحيد في

جيله، فإنه بدأ المهمة بـ «The Statesman's Manual»، و «Aids to Reflection»، و «On the Constitution of the Church and the State»، وقد أكدت كلها الحاجة إلى الرمز، الوسيط بين الحرفي والمجازي الصرف. وهو على الأقل بدأ العمل على إعادة التأمل اللاهوتي من حقل التأمل المجرد إلى عالم التجربة الإنسانية، ليتابع المسيرة رجال مثل نيومان، وج. س. هير، وف. د. موريس.

ولم يكن على الشعر، لحسن الحظ، أن ينتظر طويلاً. وبمجيء وردزورث وكولريدج لم يكن شعر التجربة قد بدأ حقاً فحسب، بل أوصل إلى إنجاز رائع. وعلى غرار ما قد رأينا، لم يعد الشعر إشارة صرفة إلى الأشياء، صفّاً للواقعي والمثالي، للموضوع والذات، للمادي والروحي، جنباً إلى جنب، آملاً في أن يلامس أحدهما الآخر على نحو ما. كان الشعر تحقيقاً لوحداية الرؤية، إدراكاً للحقائق المتباينة - الموضوع والذات، وحتى الديني والديني - في رمز شقائي. ولعلّ توحد هذه الحقائق، التي يُنظر إليها بوصفها من جوهر واحد، يمكن أن يُحسّ الآن، يمكن أن يُشعر به في القلب كله، يمكن أن يُلمس على الأقل بزاوية العين، حتى إنه يُرى أحياناً باطراد حين تكون الرؤية خفية.

لقد قلنا إنّ تغييراً في الحساسية الدينية هو الذي يكون أساساً لهذا التغيير في الحساسية الشعرية. وقد يجد المرء نفسه مدفوعاً إلى القول إنّ ما هو أساسي في هذا التغيير هو تحرير جديد للشعور، حيث إنه أذن للعاطفة من جديد بالدخول في التعبير عن التجربة الدينية، ردّاً على عقلانية القرن الثامن عشر. والمؤكد أنّ هذا شطر من الإجابة، حين شرعت المنهجية Methodism بتشجيع تحرير العاطفة في العبادة العامة والفردية. لكنّ التغيير العميق يُرجّح أن يكون قد وجد في ثلاث وجهات نظر جديدة متداخلة بعمق، أشير إليها جميعاً في تضاعيف هذه المقالة.

قبل كلّ شيء، هناك إذن مجددٌ لدور الإرادة البشرية في التجربة الدينية، تاركاً المجال مفتوحاً لإمكانية انغماس حرّ من النفس في الإيمان، التقاء إيماني

بالحقيقي بآية طريقة جُرب - وليس فحسب حين يكون «يمكن التصديق موضوعياً». والحقيقي الذي يلتقي به لا يحتاج إلى أن يكون قابلاً للقياس أو قابلاً للتصنيف؛ إذ قد يفوق نسبياً قدرة الإنسان على الإدراك. وهناك، أخيراً، إدراكك مجدّد لوحدة الوجود كلّ؛ أيّ وحدة الجوهر عند كولريديج. ومن الممكن، تبعاً لذلك، أن نتكلّم على الروحي - سواء أكان الإله المتعالّي، أو حضور الإلهي الحالّ في الطبيعة، أو المقدّس الذي يؤنس في أغوار نفس الإنسان - من خلال نمائلة صادقة للحقيقة الملموسة. لم يعد المقدّس شيئاً مهيباً عن بُعد، إنّهُ شيء مهيب حاضر. والروحي الذي يلمح في عوالمنا الطبعيّة والإنسانيّة («quick now, here, now, always»)، يعطي بيانات صادقة، إذا ما كانت محدّدة، عن حقيقة مثاليّة ومتعالية. وأكثر من ذلك، هو نفسه تجربة لتلك الحقيقة.

ويمكن القول في منظور أشمل، ليس هذا التغيير في الحساسية الدينيّة غير لحظة في تاريخ كامل من التغيير. ويبدأ السيد J.Hillis Miller دراسته لـ «تواري الله disappearance of God» عند خمسة من كُتاب القرن التاسع عشر، بالفلاسفة الذين سبقوا أفلاطون والكتابات الأولى من العهد القديم، حيث كانت القوّة الإلهيّة تُحسّس بوصفها «حاضرة مباشرة في الطبيعة، وفي المجتمع، وفي قلب كلّ إنسان. وهكذا رأى موسى الله في الأجمة المشتعلة، وهكذا يكون بارمانيدس وهيراقليط فيلسوفين شاعرين من أصحاب الحلول التام»⁽⁶⁾. لم تكن الرموز بعيدة عن الحقائق التي مثلتها. «كان الشعر ذا مغزى بالطريقة نفسها التي كانت عليها الطبيعة نفسها - من خلال اشتراك الرموز اللفظيّة في الحقيقة التي دلّت عليها». وهذا الإحساس المقدّس الحاضر سابقاً في الثقافة الغربيّة أقرّ وعُزّز، في رأي ملر، من خلال تجسيد المسيح، ومن خلال القربان المقدّس Eucharist، «تحملي المشاركة وضمانتها» (ص 3).

(6) تواري الله: خمسة كُتاب من القرن التاسع عشر The Disappearance of God: Five Nineteenth Century Writers (نيويورك، 1965)، الصفحات 2-3.

ومن وجهة أخرى، فإن «تاريخ الأدب الحديث» - ويعني ملر بهذا تقريباً الأدب بدءاً من القرن السابع عشر فصاعداً - «هو جزئياً تاريخ تفنيت هذه المشاركة» (ص 3). وربما لا يتنبه المرء إلى ربط هذا التغيير ربطاً قوياً جداً، كما يفعل هو، بالرؤية البروتستانتية للقربان المقدس (وخاصة رؤية زوينجلي Zwingli أو كالفن Calvin للقربان المقدس بوصفه، حسب تعبير ملر، «تعبيراً عن غياب» أكثر منه تعبيراً عن حضور)، لكنّ تضاًؤل الإحساس المقدس في اللاهوت هو، على الأقل، مثيل رائع للتغيير في الأدب. وليست الأشياء وحدها هي التي قد فقدت بعدها المقدس، بل إنّ الكلمات أيضاً حصل لها مثل هذا. وإن شعر فيرلين Verlainه ذا الموسيقى الصرفة (de la musique avant toute chose)، هو وحده القمة التي لا بدّ منها لتاريخ طويل. «وقد أفرغت الكلمات تدريجياً في هذا التطور، وفقدت مشاركتها الملموسة في الحقيقة المادية والروحانية» (ص 6). وتعبّر الحداثة في الأدب عن إحساس الضياع، العزلة. ذلك أنّ الإنسان يفصل عن الطبيعة، وعن الناس الآخرين، وعن الله. «فقد سيطر على الفكر الحديث افتراض قبيّ مفاده أنّ كلّ إنسان مقفل عليه في سجن وعيه. فبدءاً من مونتيني Montaigne إلى ديكارت ولوك، امتداداً إلى مذهب التداعي associationism، والمثالية، والرومانسية، إلى علم الظاهرات ووجودية العصر، كان مفترضاً أنّ الإنسان ينبغي أن ينطلق من التجربة الداخلية لذات معزولة» (ص 8).

إلى حدّ هذه النقطة في مُستطاعي فحسب أن أوافق، لكنني مضطراً إلى التوقّف قليلاً بسبب افتراض أنه «في سائر مراحل الفكر الحديث تكون الحالات الداخلية للنفس بداية يعزّ، في معنى من المعاني، أن يُتسامى بها» (ص 8). وأيّاً كانت مشروعية تغيير ملر لمعظم مرحلة أواخر القرن التاسع عشر - وأحسب، جملةً، أنّه أيضاً تفسير للقرن الثامن عشر - فإنّ هذا التفسير يقصّر، على نحو خطير، في تفسير ظاهرة الرومانسية. إذ يصوّر ملر الغنائي الرومانسي بأنّه، جوهرياً، مثاليّ، «إنسان في غياب عالم معطى عليه أن يوجد عالمه. فالافتراض الأساسي للرومانسية هو فكرة أنّ الشخص المعزول، من خلال الشعر، يمكنه

أن يوجِد بجهوده الخاصة إيقاعاً رائعاً للكلمات سيوحّد الإنسان والطبيعة والله». وما كنّا قد ناقشناه دائماً في ما يتّصل بكولريديج، المنظّر الرئيس للحركة الرومانسيّة، هو أنّ نظريته واستخدامه الرمز (وكذا نظريّة وردزورث واستخدامه الرمز) قد أدّنا له بأنّ ينجو من شرك مثاليّة صرفة، وقد اقترحنا أنّ الشيء نفسه يصدّق، في الجملة، على الرومانسيين الآخرين. وإنّ استعارات كولريديج من المثاليين الألمان ساعدته في التعبير بوضوح عن تجربته الذاتية الخاصة، لكنّه كان قادراً، من خلال انفتاح رمزه على الحقيقة كلّها، أن يحوّل هذه المثاليّة إلى واقعيّة قويّة - مثاليّة رغم أنّها واقعيّة، شخصيّة رغم أنّها ليست أنانيّة. ولا تُبنى النظرية الرومانسيّة على الإيجاد فحسب، بل على إعادة تخيليّة للإيجاد، تنظيم ذاتي للشاعر، يستجيب فيه لنظام الأشياء الذي أحسّه، على الأقلّ، في حقيقة خارج كيانه.

وما يقول ملر عن الأثر الكبير لفقدان المعنى المقدّس في الأدب بدءاً من نهاية القرن السابع عشر، يبدو صحيحاً. وثمة إحساس بالفقدان، بالانعزال. هناك، نسبياً، انسحابٌ للمقدّس - يتضمّن «تواري الله disappearance of God». لكنني أحسب أنّ الروح الرومانسيّة استثناء واضح من هذا التطوّر المطّرد المشروع من نواحٍ أخرى. إنّ الرومانسيّة في إدراكها حضور الإلهي في العالم هي، على الأقلّ، عودة خاطفة إلى رؤية مبكّرة للعالم. والذي يظلّ باقياً بين أيدينا من الروح الرومانسي ربما يكون، حقيقة، أحد المعامل الحقيقيّة الباقية للأدب في الحقيقي الموضوعي.

ولا تظهر الرومانسيّة فوراً لتواري بعد حين. فقد رأينا في العقود الحديثة أنّ ما ندعوه «الرومانسيّة» قد يكون عنصراً حاضراً، بدرجة كبيرة أو صغيرة، في كلّ عهد وفي كلّ عمل فني. وقد مالت نظرات مبكّرة (كنظرية لفريدريك شليغل مثلاً)، إلى أن تنظر إلى الكلاسيّ والرومانسيّ بوصفهما صنيعتين للتعبير الخفيّ تناصب إحداهما الأخرى العداء.

ومهما يكن، فإنّه في استطاعتنا الآن أن نرى أنّهما في حقيقة الأمر (كما يصف

ذلك مؤرخ الفن إريك نيوتن) «موقفان مختلفان للعقل، كلٌّ منها قادرٌ على إغناء الآخر حين يدججان، وكلُّ منهما، حقيقةً، يقدمُ عنصراً ضعيفاً حين يفصل بينهما. فما يجعل باخ Bach أعظم من معاصريه إنما هو لحظاته المفاجئة من الغموض والتوق إلى الماضي. وما يجعل فاغنر Wagner خالداً هو النمط الشكلي الذي يكون أساساً لعصابه الرائع»⁽⁷⁾.

ولا ترجع تسمية عصرٍ ما كلاسيّاً أو رومانسيّاً إلى أنه كلاسيٌّ أو رومانسيٌّ من أوله إلى آخره، بل لأن اتجاه عصر من العصور، في الجملة، إنما نحو الموضوعية والكمال الشكلي المنجز، وإما نحو الذاتية واستمرار التساؤل والغموض. ولن يكون الفن العظيم كلاسيّاً أو رومانسيّاً صرفاً. وحتى بوب Pope يبيد قوة في الشعور، مهما قيّدت، وحتى وردزورث، أيّاً كانت درجة ابتعاده عن ملتون، تشدّه من الداخل القوة الجاذبة في بيت ذي إيقاع وبعض أنماط التركيب في الشكل الملحمي. ففي الفن العظيم كلّ «ائتلاف الأضداد» الذي يقول به كولريدج.

ويبقى السؤال، على غرار ما يمكن أن يظلّ دائماً، عسماً يؤثّف العنصر الرومانسيّ في الفن. ولقد أثير انتباهنا، منذ مقالة لفجوي Lovejoy الشهيرة سنة 1923، إلى «تمييز الرومانسيّات». لكنّ البحث سيتواصل، على الأقلّ بتقطع، في سبيل التحديد. وربما يكون هذا حيث يستطيع الرمز أن يدخل مرحلة العمل بفعالية، فاسحاً المجال لتحديد لا يحدّد بدقة بحيث يشوّه مغزى الرومانسيّات الكثيرة التي نصادفها. وثمة واحدة من الرومانسيّات، كرومانسيّة «البحار العجوز»، تُميّز بإحساس الإنسان بالضعف والعزلة والنقص؛ وأخرى تمجّد الإرادة الإنسانية، كرومانسيّة مانفرد، إلى درجة التأليه. وترنو رومانسيّة مثل رومانسيّة سكوت إلى الوراثة في عبادة للماضي، خاصةً ماضي العصور الوسطى؛ وتميل أخرى، كرومانسيّة وردزورث، إلى استشراف مستقبل مفعم بالأمل، وحتى فردوسي. وثمة رومانسيّة فطريّة تُعلي الطبيعة على الفن،

(7) التمرد الرومانسي The Romantic Rebellion، (نيويورك 1964)، ص 12.

والبساطة على التعقيد؛ وثمة رومانسية أخرى غير فطرية لكنها شديدة التعقيد؛ وهي لا محالة فنية artful نظراً إلى تعقيدها الشديد. ولقد استُخدمت كلمة «رومانسية» في الدلالة على أشياء متباينة جداً لدرجة أن كثيرين من النقاد قد سئموها.

ورغم ذلك، قد يكون ثمة عنصر مشترك في هذه الرومانسيات جميعاً - عنصر الخفاء. وسواء أكان ماضياً منظوراً إليه «رومانسياً» أم مستقبلاً لتقدم محدد منظوراً إليه مثالياً؛ وسواء أكان إحساساً بالعزلة وعدم الأمان أم إحساساً بقوة عظيمة؛ وسواء أكان مظاهر بساطة في طبيعة أولية وفطرية أم صور تعقيد في فن يسعى إلى عناق الحقيقة بكل ما أوتي من قوة - هناك دائماً خفاء. وحيث رجس الإنسان رومانسية وجد خفاء، وحيث وجد خفاء سيجد الرمز؛ لأن الرمز وحده في وسعه أن يتعقب الخفاء ويعبر عنه، مهما تكن درجة النقص في هذا التعبير.

ولهذا السبب سيكون هناك دائماً روح روماني، مهما أضعف، في سائر العصور. على أن هناك أعصرًا، كمصر بوب Pope، تميل إلى إخضاع عنصر الخفاء إلى صور الموضوع الحقيقية نفسها التي يمكن أن تُحقق - الأخلاق الاجتماعية، أو الحياة السياسية، أو أيًا ما كان. وهناك أعصر أخرى، كأوائل القرن التاسع عشر في إنكلترا، تُضطر - بفعل المؤثرات السياسية والتاريخية، ويرد الفعل على «دفن الماضي» (حسب تعبير الأستاذ بيت Bate)، ويدافع إنساني بسيط - إلى مواجهة صور الخفاء بثبات كبير. وثمة عصور بين بين، كأواخر القرن الثامن عشر، تبدأ فحسب في الإحساس بالحاجة إلى تجربة أكثر تركيزاً وإلى التعبير بوضوح عن أسرار الإنسان.

لقد ادعينا، ضمناً على الأقل، حقوقاً أكثر قوة للرمز الروماني، حيث اقترحنا أن الرمز قادرٌ على تحقيق إدراك للحقيقة أكبر من الأشكال الأخرى للتعبير الشعري. وقد زعم خاصة - وآمل أن يكون قد دُلل على ذلك باستطلاعات في شعر اللقاء الرمزي - أنه من خلال الرمز وحده يستطيع الشاعر أن يعبر بوضوح عن المتعالي، وحتى الروحي، في التجربة الإنسانية. ولعل

إحدى خصائص الرومانسية، في أي صورة يمكن أن تظهر، أنها تنقل إحساساً بعالمين. ويُميز المزاج الرومانسي عموماً، كما يقول الأستاذ لفجوي، بشورة على النزعة الطبيعية naturalism، بـ «ثنائية أخلاقية وميتافيزيقية، فلسفة عالمين»⁽⁸⁾. ولا يعني هذا القول إن الروح الكلاسي غير ديني حتماً. النقطة الأساسية هي على الأصح أن المزاج الكلاسي، حتى حين يسلم بعالم ذي قيم روحية أو متعالية، لا يرى هذا العالم متفاعلاً مع عالم الحقيقة اليومية والفعل اليومي: قد توجد القيم الميتافيزيقية والدينية العليا، لكنها توجد في عالم منفصل. والمقدس، والروحي، والمتعالي، ليست حاضرة بل غائبة؛ إذ يشار إليها، لكنها لا تلاقى. وليس هناك حاجة ماسة إلى الرمز في مثل هذه الرؤية للعالم، لأنه لا حاجة إلى التعبير عن خفاء عالمين متفاعلين. ومهما يكن، فإنه في الرؤية الرومانسية يمكن، بل ينبغي لهذين العالمين - حيث كل منهما مائل للآخر، وكل منهما من نفس جوهر الآخر - أن تعانقهما شفافية الرمز، التي يمكن لكلا العالمين فيها أن يُريا في ضياء رؤية واحدة.

ولعلنا غير مخطئين إن نحن قلنا إن الرمز الذي كتب عنه كولريدج - واستخدمه - ليس «دينيّاً» تماماً بمعنى ضيق. إذ قد يُعبّر حقاً عن المتعالي في التجربة الإنسانية، لكنه قد يكون أيضاً أداة للتعبير عما سَميناه المقدس في أعماق النفس. فالتجربتان مقترنتان عموماً بالنسبة إلى الشاعر الرمزي. وسيتلّمس دائماً طريقه إلى التعبير عن «سبب وجوده»، حيثما يجده، وسيكون الرمز أداةً لتعبيره. ونظراً إلى أنه سيكون هناك دائماً مثل هذا النضال، بدرجة كبيرة أو صغيرة، سيكون هناك دائماً مزاج رومانسي بهذا القدر أو ذاك، وسيكون هناك دائماً عنصر رمزي في الضرب الأكثر عمقاً من شعر الإنسان. ولعلّه لهذا السبب ما يحيا الروح الرومانسي إلى الآن، رغم الصعود والهبوط في الأهمية من عصر إلى عصر - وليس ذلك بفعل سلطان الأدب، رغم وجود خيوط من هذا السلطان يمكن أن تُستلّ، بقدر ما هو نتيجة للبحث الدائب للروح الإنساني.

(8) «عالمًا كولريدج وكانت Coleridge and Kant's Two Worlds»، في مقالات في تاريخ الفكر Essays in the History of Ideas (بالتيمور، 1948)، ص 275.

ثَبَّتْ الْأَعْمَالُ الْمُشْتَهَدَ بِهَا

«List of Works Cited»

- Abrams, M.H. "Coleridge's 'A Light in Sound': Science, Metascience, and Poetic Imagination." *Proceedings of the American Philosophical Society*, 116 (1972), 458-476.
- . *Natural Supernaturalism: Tradition and Revolution in Romantic Literature*. New York: W.W. Norton, 1971.
- Appleyard, J.A., S.J. *Coleridge's Philosophy of Literature: The Development of a Concept of Poetry, 1791-1819*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1965.
- Auerbach, Erich. *Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature*. Princeton University Press, 1953.
- Baker, James Volant. *The Sacred River: Coleridge's Theory of the Imagination*. Baton Rouge, La.: Louisiana State University Press, 1957.
- Barth, J. Robert, S.J. *Coleridge and Christian Doctrine*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, Belknap Press, 1969.
- Bate, W. Jackson. *The Burden of the Past and the English Poet*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, Belknap Press, 1970.
- Boulger, James D. "Coleridge on Imagination Revisited." *The Wordsworth Circle*, IV (1973), 13-24.
- Carlyle, Thomas. *Sartor Resartus: The Life and Opinions of Herr Teufelsdröckh*, ed. Charles Frederick Harrold. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1937.
- Cohen, Ralph. *The Unfolding of "The Seasons."* Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1970.

Coleridge, Samuel Taylor. *Aids to Reflection in the formation of a manly character on the several grounds of prudence, morality and religion. illustrated by select Passages from our elder divines, expecially from Archbishop Leighton.* Edf. Henry Nelson Coleridge, in *The Complete Works*, ed. Shedd, I.

- . . *Biographia Literaria*. Ed. Henry Nelson Coleridge (completed by Sara Coleridge), in *The Complete Works*, ed. Shedd, III.
- . . *Biographia Literaria*. Ed. J. Shawcross. 2 vols. Oxford: Oxford University Press, 1907.
- . . *Collected Letters of Samuel Taylor Coleridge*. Ed. Earl Leslie Griggs. 6 vols. Oxford: Clarendon Press, 1956-1971.
- . . *The Collected Works of Samuel Taylor Coleridge*. Ed. Kathleen Coburn Princeton: Princeton University Press, 1969-. (Bollingen Series LXXV).
- . . *The Complete Poetical Works of Samuel Taylor Coleridge*. Ed. Ernest Hartley Coleridge. 2 vols. Oxford: Clarendon Press, 1912.
- . . *The Complete Works of Samuel Taylor Coleridge, with and Introductory Essay upon His Philosophical and Theological Opinions*. Ed. W.G.T. Shedd. 7 vols. New York: Harper and Brothers, 1856.
- . . *The Friend: A Series of Essays To Aid in the Formation of Fixed Principles in Politics, Morals, and Religion, with Literary Amusements Interspersed*. Ed. Barbara E. Rooke, in *The Collected Works*, ed. Coburn, iv.2 vols. Princeton: Princeton University Press, 1969.
- . . *Inquiring Spirit*. Ed. Kathleen Coburn. London: Routledge and Kegan Paul, 1951.
- . . *The Literary Remains of Samuel Taylor Coleridge*. Ed. Henry Nelson Coleridge, in *The Complete Works*, ed. Shedd, V.
- . . *Coleridge's Miscellaneous Criticism*. Ed. Thomas Middleton Raysor. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1936.
- . . *The Poetical Works of Samuel Taylor Coleridge*. Ed. James Dykes Campbell. London: Macmillan, 1893.
- . . *Shakespearean Criticism*. Ed. Thomas Middleton Raysor. 2 vols. London: J.M. Dent, Everyman's Library, 1960.
- . . *Specimens of the Table Talk of the Late Samuel Taylor Col-*

- eridge. Ed. Henry Nelson Coleridge, in *The Complete Works*, ed. Shedd, VI.
- . *The Statesman's Manual; or, the Bible the Best Guide to Political Skill and Foresight: A Lay Sermon, Addressed to the Higher Classes of Society* ["First Lay Sermon"], in *Lay Sermons*. Ed. R.J. White, in *The Collected Works*, ed. Coburn, vi. Princeton: Princeton University Press, 1972.
- , and William Wordsworth. See Wordsworth, William.
- Coulson, John. *Newman and the Common Tradition: A Study in the Language of Church and Society*. Oxford: Clarendon Press, 1970.
- Cowper, William. *Cowper: Verse and Letters*. Ed. Brian Spiller. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1968.
- Gragg, Gerald R. *Reason and Authority in the Eighteenth Century*. Cambridge: Cambridge University Press, 1964.
- Crane, Ronald S., ed. *A Collection of English Poems, 1660-1800*. New York: Harper and Row, 1932.
- Dryden, John. *Prose 1668-1691, Essay of Dramatick Poesie and shorter Works*. Ed. Samuel Holt Monk, in *The Works of John Dryden*, ed. Edward Niles Hooker and H.T. Swedenberg, xvii. Berkeley: University of California Press, 1971.
- Eliot, T.S. *Selected Essays*. New York: Harcourt, Brace, 1932.
- Feidelson, Charles, Jr. *Symbolism and American Literature*. Chicago: University of Chicago Press, Phoenix Books, 1953.
- Fogle, Richard Harter. *The Idea of Coleridge's Criticism*. Perspectives in Criticism, 9. Berkeley: University of California Press, 1962.
- Garber, Frederick. *Wordsworth and the Poetry of Encounter*. Urbana: University of Illinois Press, 1971.
- Haven, Richard. *Patterns of Consciousness: An Essay on Coleridge*. Amherst, Mass.: The University of Massachusetts Press, 1969.
- Honig, Edwin. *Dark Conceit: The Making of Allegory*. New York: Oxford University Press, Galaxy Books, 1966.
- House, Humphry. *Coleridge: The Clark Lectures, 1951-52*. London: Rupert Hart-Davis, 1953.
- Kahler, Erich. "The Nature of the Symbol." *Symbolism in Religion and Literature*, ed. Rollo May. New York: George Braziller, 1960. Pp.50-74.
- Knights, L.C. "Idea and Symbol: Some Hints from Coleridge." *Coleridge: A Collection of Critical Essays*, ed. Kathleen Coburn. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1967. Pp.112-122.

- Langbaum, Robert. *The Poetry of Experience*. New York: W.W. Norton, The Norton Library, 1963.
- Lewis, C.S. *The Allegory of Love: A Study in Medieval Tradition*. New York: Oxford University Press, Galaxy Books, 1958.
- Lovejoy, Arthur O. "Coleridge and Kant's Two Worlds." *Essays in the History of Ideas*. Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1948.
- McFarland, Thomas, P. "The Symbiosis of Coleridge and Wordsworth." *Studies in Romanticism*, 11 (1972), 263-303.
- Miller, J. Hillis. *The Disappearance of God: Five Nineteenth-Century Writers*. New York: Schocken Books, 1965.
- Newton, Eric. *The Romantic Rebellion*. New York: Schocken Books, 1964.
- Perkins, David, ed. *English Romantic Writers*. New York: Harcourt, Brace and World, 1967.
- . *The Quest for Permanence: The Symbolism of Wordsworth, Shelley and Keats*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1959.
- Politzer, Heinz. *Franz Kafka Parable and Paradox*. Rev. ed. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, Cornell Paperbacks, 1966.
- Prickett, Stephen. *Coleridge and Wordsworth: The Poetry of Growth*. Cambridge: Cambridge University Press, 1970.
- Richards, I.A. *Coleridge on Imagination*. Bloomington, Ind.: Indiana University Press, Midland Books, 1960.
- Schillebeeckx, Edouard, O.P. *Christ the Sacrament of the Encounter with God*. New York: Sheed and Ward, 1963.
- Shea, John. "Human Experience and Religious Symbolization." *The Ecumenist*, 9 (1971), 49-52.
- Spacks, Patricia Meyer. *The Poetry of Vision: Five Eighteenth Century Poets*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967.
- Tennyson, G.B. "Sartor" Called "Resartus." Princeton: Princeton University Press, 1965.
- Tillich, Paul. *Dynamics of Faith*. World Perspectives, vol.10. New York: Harper, 1956.
- Warren, Robert Penn. *Selected Essays*. New York: Vintage Books, 1958.
- Waston, George. *Coleridge the Poet*. London: Routledge and Kegan Paul, 1966.
- Wendling, Ronald C. "Coleridge and the Consistency of 'The Eolian Harp'." *Studies in Romanticism*, 8 (1968), 26-42.

- White, William Hale ("Mark Rutherford"). *The Autobiography of Mark Rutherford, Dissenting Minister*. 2nd ed. London: Humphrey Milford, Oxford University Press, 1936.
- Willey, Basil. *The Eighteenth Century Background: Studies on the Idea of Nature in the Thought of the Period*. Boston: Beacon Press, 1961.
- Wordsworth, William. *Literary Criticism of William Wordsworth*, ed. Paul M. Zall. Lincoln, Nebraska: University of Nebraska Press, 1966. (Regents Critics Series).
- . *The Prelude; or, Growth of a Poet's Mind*. Ed. Ernest de Selincourt; 2nd ed., rev. by Helen Darbishire. Oxford: Clarendon Press, 1959.
- . *Wordsworth: Poetical Works*. Ed. Thomas Hutchinson; rev. by Ernest de Selincourt. London: Oxford University Press, 1950.
- . , and Samuel Taylor Coleridge. *Lyrical Ballads: The Text of the 1798 edition with the additional 1800 Poems and the Prefaces*. Ed. R.L. Brett and A.R. Jones. London: Methuen, 1963.

عَمَّ يتحدثُ هذا الكتاب؟

يضع هذا الكتابُ على مائدة فكرك، عزيزي القارئ، ضرباً من الدراسات العميقة التي تتناول لوناً شعرياً متميزاً، هو «الشعر الرومانسي» عند عُلَمَاءٍ من أبرز أعلامه في تاريخ الأدب العالمي: كولريدج ووردزورث.

ولا يجانب المتأملُ الصواب إن هو قال إن مؤلف هذا الكتاب قدّم الكثير من عصارة فكر مستنير ونظر ثاقب. فقد ميّز بين الرمز وكلّ من المجاز والقصة الرمزية، وخلص إلى القول إن الرمز هو السبيل الوحيدة لعناق المطلق. وتبين ضربين من الشعر، سمى أحدهما: «شعر اللقاء» وسمى الآخر «شعر الإشارة». وشعر اللقاء هو شعر الرمز الذي يصدر عن رؤية شعرية قائمة على إدراك العلاقات المتبادلة والعميقة والمتأصلة بين الفكر والشعور، وبين العقل والطبيعة، وبين الطبيعة والمتعالي. أما شعر الإشارة فذلك الشعر الذي يشير دون أن يلتحم، ويثبّه دون أن يلايس.

كان همُّ المؤلف - وهو أستاذ في جامعة مسوري في الولايات المتحدة - في دراسة الخيال الرمزي عند كولريدج ووردزورث دراسة دقيقة؛ ابتغاء الوصول إلى بعض المبادئ العامة التي تحكم الشعر الرومانسي؛ لأنه رأى أن المظاهر الرمزية عند الشعراء الرومانسيين، ومن ثم المظاهر الدينية، كثيراً ما أهملت أو صُرّفت عن وجهتها الصحيحة. وكانت مسألة «الرمز» عند كولريدج خاصة شغله الشاغل، حيث انتهى إلى الاستيقان أنها تقف في صميم مساهم الفكرية الشامل، سواء أكان ذلك في الشعر أم في النقد أم في الفلسفة. ويختم المؤلف مؤلفه بمقالٍ عن «السياق الديني للرمز»، وذلك بعد أن فقدت الأشياء والكليات بُعدها المقدس، وصارت الحداثة الأدبية تعبر عن إحساس بالضياح والمزلة؛ نظراً إلى أن الإنسان يُفصل عن الطبيعة، وعن الآخرين، وعن خالقه «سبحانه». ويرى المؤلف أنه من خلال الرمز وجده يستطيع الشاعر أن يعبر عن المتعالي والروحي في التجربة الإنسانية.

إلى ذلك كله رمى المؤلف، وقد أعدّ ما استطاع من قوة، أما أمرُ التوفيق في الإصابة فمتروكٌ تحديده لك - أيها القارئ - الحصيف الباحث عن الحقيقة. «عيسى علي الماكوب»

To: www.al-mostafa.com